سُورَةُ الحَدِيدِ

رَحْلَةٌ مِنْ تَسْبِيحِ الْوُجُودِ إِلَى نُورِ الْقُلُبِ
وَمِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا إِلَى مِيزَانِ الْآخِرَةِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَّامِيُّ

سُورَةُ الْحَدِيدِ

رِحْلَةٌ مِنْ تَسْبِيحِ الْوُجُودِ إِلَى نُورِ الْقَلْبِ

وَمِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا إِلَى مِيزَانِ الْآخِرَةِ

تأليف: رَدَّاد السَّلَّامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

السورة التي تطرق القلب بمطرقة النور

ليست سورة الحديد حديثًا عن معدنٍ تختبئ عروقه في باطن الأرض فحسب، بل هي حديثٌ عن الإنسان حين يختبئ في باطنه ما هو أشدُّ صلابةً من الحديد: قلبٌ طال عليه الأمد فقسا، ونفسٌ أثقلتها الدنيا حتى عجزت عن النهوض إلى الله، وروحٌ غمرتها ظلمات الغفلة حتى نسيت أن لها نورًا لا يكتمل إلا بالقرب من ربها. ولهذا تبدو السورة، من أولها إلى آخرها، حركةً هائلةً بين السماء والأرض، وبين النور والظلمة، وبين اللين والقسوة، وبين ما يبقى وما يزول؛ تبدأ بتسبيح الوجود كله، ثم تفتح أمام القلب أبواب الملك والقدرة والعلم، ثم تسأله في لهجةٍ توقظه من غفلته: كيف لا يؤمن؟ وكيف لا ينفق؟ وكيف يرضى أن يظل في العتمة وقد نزل إليه النور؟ ثم تسوقه إلى مشهد القيامة، حيث ينفصل أصحاب النور عن أصحاب الظلمة، وحيث لا تعود الدعاوى قادرةً على إنقاذ أحد، ولا يستطيع الإنسان أن يستعير نورًا لم يصنع أسبابه في الدنيا.

وفي السورة إيقاعٌ يشبه الطرق المتتابع على بابٍ مغلق؛ كل آيةٍ ضربة، وكل مشهدٍ دعوة، وكل سؤالٍ إيقاظ. كأنها تريد أن تستخرج الإنسان من القشرة التي بنتها حوله الأيام، وأن تردَّه إلى حقيقته الأولى: عبدًا في مملكة الله، مؤتمنًا على ما ليس له، عابرًا في دنيا لا تستحق أن يتخذها وطنًا نهائيًّا، ومسافرًا إلى يومٍ لا ينفعه فيه إلا ما تحوَّل من إيمانه إلى نور. وهي، مع شدتها الموقظة، سورةٌ مغمورة بالرحمة؛ لأن الله لا يكشف للإنسان فقره ليحطمه، بل ليحرره من أوهامه، ولا يريه فناء الدنيا ليطفئ قلبه، بل ليدله على الحياة التي لا تزول، ولا يذكر له الحديد إلا بعد أن يذكر الكتاب والميزان، كأن القوة في ميزان الوحي لا تسبق الهداية، ولا تنفصل عن العدل، ولا تصبح شريفةً إلا حين تحرس الحق وتمنع أن تأكله أنياب الباطل.

سنمضي في هذه السورة كما يمضي المسافر من فجر التسبيح إلى ليل الحساب، ومن هيبة الملك إلى رقة الإنفاق، ومن خداع الزينة إلى يقظة الخشوع، ومن الحديد الذي تقوم به موازين الأرض إلى النور الذي تعبر به الأرواح صراط الآخرة. ولن نقرأ آياتها بوصفها أخبارًا بعيدة، بل مرايا معلقةً أمامنا؛ فما من منافقٍ يُكشف في مشهد النور إلا وفي النفس ظلٌّ ينبغي أن تخشاه، وما من مؤمنٍ يُدعى إلى الإنفاق إلا وفي اليد شيءٌ ينبغي أن يتحرر من قبضتها، وما من قلبٍ يُحذَّر من القسوة إلا وبين ضلوعنا قلبٌ قد يطول عليه الأمد إن لم يتداركه القرآن.

الوجودُ كلُّه ساجدٌ وإن غفل الإنسان

تأملات في الآيات الأولى من السورة

يقول الله تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تبدأ السورة قبل أن يبدأ الإنسان كلامه، وقبل أن يعرض حاجاته، وقبل أن يرفع إلى السماء دعاءه أو شكواه؛ تبدأ بصوت الوجود كلِّه وهو يسبِّح الله. وكأن الوحي يريد أن يخرجنا منذ اللحظة الأولى من سجن الذات الضيق إلى رحابة الكون، وأن يقول لنا: لستم وحدكم في هذا العالم، ولستم مركزه الذي تدور حوله الأشياء؛ إنكم جزءٌ صغير من موكبٍ عظيم، كلُّ ما فيه متجهٌ إلى الله، خاضعٌ له، شاهدٌ بكماله، ناطقٌ بعظمته وإن لم تدركوا لغته. السماوات بما فيها من مجرَّاتٍ لا يُحصيها عقل، والأرض بما فيها من ذرَّاتٍ لا تحيط بها عين، والبحار في اضطرابها، والجبال في سكونها، والنجوم في مداراتها، والبذور في ظلمة التراب، والدماء في عروق الأحياء؛ كلُّ ذلك واقعٌ في عبادةٍ كونية لا تنقطع، يسبِّح لله بوجوده، وبنظامه، وبافتقاره، وبانقياده للسنن التي أودعها خالقه فيه.

ولم يقل: سبَّح العقلاء، أو سبَّحت الملائكة والمؤمنون، بل قال: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ليشمل الخطاب كلَّ شيء، وليشعر الإنسان أن الصمت الذي يخيَّل إليه أنه يملأ العالم ليس صمتًا في الحقيقة، وإنما هو تسبيحٌ لا تلتقطه أذنٌ أثقلتها الضوضاء. الحجر الذي يبدو جامدًا ليس خارجًا عن سلطان المعرفة الإلهية، والشجرة التي لا تملك لسانًا كلساننا ليست محرومةً من نصيبها من العبودية، والليل حين ينسدل ليس فراغًا أسود، بل آيةٌ مطيعة تؤدي وظيفتها في نظام الخلق. إن الكون ليس كلمةً باردةً ألقتها المصادفة في الوجود، بل محرابٌ واسع، لكل مخلوقٍ فيه سجدة، ولكل ذرةٍ فيه وجهة، ولكل ظاهرةٍ فيه دلالةٌ تعيد البصيرة إلى الواحد الذي خلق وقدَّر وهدى.

ومن هنا يبدأ إصلاح القلب: أن يدرك الإنسان أنه الكائن الوحيد القادر على أن يعيش غريبًا عن الإيقاع الذي يملأ الوجود. فكل شيءٍ يسبِّح، أما هو فقد ينشغل عن التسبيح؛ وكل شيءٍ يسير إلى الغاية التي خُلق لها، أما هو فقد يبدد عمره في غير غايته؛ وكل مخلوقٍ يؤدي رسالته دون اعتراض، أما هو فقد يملك أن يعصي، وأن يتكبر، وأن يعيش داخل مملكة الله

كأنها ملكه الخاص. وما أشد وحشة الإنسان حين يخرج من موكب التسبيح! قد تحيط به الأشياء، وتزدحم حوله الوجوه، وتمتلئ يده بالمكاسب، لكنه يظل منفصلًا عن المعنى الأعظم الذي يجري في الوجود. ولذلك لا يكون الذكر كلمةً تضاف إلى الحياة، بل هو عودة الحياة إلى انسجامها، فعندما يقول القلب: سبحان الله، لا ينشئ حقيقةً جديدة، وإنما يلتحق بالحقيقة التي كانت قائمةً قبله، ويستعيد مكانه في الجوقة الكونية التي لم تتوقف لحظةً عن تمجيد ربها.

ثم تختم الآية باسمين يفسران كثيرًا من أسرار العالم: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فهو العزيز الذي لا يُغلب، ولا يُدفع حكمه، ولا يخرج شيءٌ عن سلطانه، وهو الحكيم الذي لا يضع شيئًا عبثًا، ولا يقدّر أمرًا سدى، ولا يجري في ملكه حادثٌ عارٍ من الحكمة، وإن غابت وجوهها عن العقول المحدودة. واجتماع العزة والحكمة يملأ القلب طمأنينةً لا تمنحها رؤيةٌ أخرى؛ لأن القوة إذا انفصلت عن الحكمة أخافت، والحكمة إذا انفصلت عن القوة عجزت، أما الله فعزته حكيمة، وحكمته عزيزة، وقدرته لا تظلم، وتقديره لا يعبث، وقضاؤه لا يصدر عن جهلٍ أو ضعفٍ أو حاجة. وما يبدو لنا اضطرابًا في صفحة اللحظة قد يكون جزءًا من انتظامٍ لا يظهر إلا حين تتسع الرؤية، وما نظنه انكسارًا نهائيًّا قد يكون معبرًا إلى بناءٍ أعمق، وما نراه تأخرًا قد يكون حمايةً من وصولٍ سابق لأوانه.

إن المؤمن لا يطلب من الحياة أن تشرح له كل شيءٍ قبل أن يطمئن إلى الله؛ لأن الله عزيزٌ حكيم. وقد لا يعرف القلب لماذا فُتح هذا الباب وأُغلق ذاك، ولماذا جاءه العطاء في صورة منع، ولماذا تأخرت عنه الأمنية حتى ذبلت في يده؛ لكنه يعرف مَن يدبّر، وهذه المعرفة قد تغنيه عن معرفة التفاصيل. فليس اليقين أن تدرك الحكمة كاملة، بل أن تثق بالحكيم حين لا تدركها، وليس التسليم تعطيلًا للعقل، بل وضعٌ للعقل في مقامه الصحيح: يتأمل، ويبحث، ويتعلم، ولكنه لا يجعل محدوديته حاكمًا على حكمة الله التي أحاطت بما كان وما يكون.

الملك الذي لا ينازعه أحد

ثم يقول تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ليست اللام هنا حرفًا يمر به اللسان ثم يمضي؛ إنها تقتلع من القلب أصول الوهم كله. لله وحده الملك، لا على سبيل المجاز ولا المشاركة ولا التفويض الذي يخرجه من سلطانه، بل ملكًا حقيقيًّا شاملًا لا تقع ذرةٌ خارجه. وما نسميه ملكًا لنا إنما هو عاريةٌ مؤقتة، وإذنٌ محدود، وامتحانٌ قصير. المال الذي في أيدينا له، والأجساد التي نتحرك بها له، والأبناء الذين نضمهم إلى صدورنا له، والمواهب التي نتباهى بها من عطائه، والأرض التي نضع عليها أسماءنا ستبقى بعد أن تُمحى أسماؤنا عنها. نحن لا نملك الأشياء ملكًا مطلقًا، وإنما نقف عندها زمنًا، ثم تنتقل من أيدينا كما انتقلت إلينا من أيدي الذين سبقونا.

ولو استقرت هذه الحقيقة في القلب لخفَّت قبضة الإنسان على الدنيا، ولما تكبَّر بما أُعطي، ولا انهار تمامًا لما فاته أو أُخذ منه؛ لأن العبد لا يتعامل مع الأشياء بوصفها أجزاءً من ذاته، بل بوصفها ودائع من مولاه. يفرح بها حين تأتي، ويشكر صاحبها، ويحسن حملها، ثم إذا استردها مالكها لم يتهمه بالظلم. والحزن فطرة، والدمع رحمة، والألم لا يناقض الإيمان، لكن وراء ذلك كله معرفةٌ تحفظ القلب من السقوط في الهاوية: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وما دام الملك له، فلا اعتراض للعارية على المالك، ولا يحق للضيف أن يتصرف في الدار كأنه صاحبها، ولا للإنسان أن ينفق عمره في الاستحواذ على ما سيتركه حتمًا.

ومن هذه الحقيقة ستنبثق دعوة الإنفاق في السورة؛ لأن القرآن لا يطلب منك أن تعطي الله شيئًا يفتقر إليه، حاشاه، ولا أن تتفضل على خلقه بما صنعته استقلالًا، وإنما يطلب منك أن تمرر بعض ما جعله في يدك إلى يد المحتاج، لتبرهن أنك فهمت طبيعة الملك. البخيل لا يعاني فقر اليد بقدر ما يعاني اضطراب التصور؛ لقد ظن أن المال ماله، وأنه حصن حياته، وأن بقاءه متوقفٌ على تشديد القبضة عليه. أما المنفق فقد رأى وراء العملة يد الواهب، ورأى وراء المحتاج بابًا إلى رضاه، وفهم أن المال لا يخلد حين يبقى، بل يخلد حين يخرج في الطريق الذي يحبه مالكه الحقيقي.

بين نفختين: سرُّ الحياة والموت

ثم يقول سبحانه: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. كلمتان قصيرتان، لكن بينهما تاريخ البشرية كله، وبينهما كل ضحكة ودمعة، وكل لقاءٍ ووداع، وكل مهدٍ وقبر. نحن نعيش بين فعلين من أفعال الله: إحياءٍ لم نُستأذن فيه، وإماتةٍ لا نملك دفعها حين تأتي. لم يختر أحدٌ منا ساعة ميلاده، ولا المكان الذي خرج فيه إلى العالم، ولا الملامح التي حملها، ولا الأسرة التي استقبلته، ثم يمضي في حياته كأنه سيد المصير المطلق، حتى تأتيه النهاية لتعيده إلى الحقيقة التي نسيها: أنه كان محمولًا منذ البدء، وأن الذي نفخ فيه سر الحياة هو الذي يقبضه حين تنتهي مهمته.

والإحياء ليس حادثةً وقعت مرةً عند الولادة ثم انقضت؛ إن الله يحيينا في كل لحظة. كل نبضةٍ إذنٌ جديد، وكل نَفَسٍ هبةٌ متجددة، وكل صباحٍ بعثٌ صغير بعد موت النوم. نحن لا نملك مخزونًا ذاتيًّا من الحياة يكفينا إلى الأبد، نحن نفتقر إلى الله في كل ثانية، ولو انقطع عنا مدد الحفظ لحظةً لانطفأت الأنفاس وسكنت الحركة. ومع ذلك يألف الإنسان النعمة حتى لا يراها، ويصبح انتظام القلب عنده أمرًا عاديًّا، ولا يدرك المعجزة إلا حين تضطرب نبضة أو يضيق نَفَس. وما الغفلة إلا أن يستمر فيك العطاء حتى تتوهم أنه حقٌّ ذاتي، وما الشكر إلا أن ترى في المألوف معجزةً تتجدد.

وهو سبحانه يحيي الأبدان بعد موتها، لكنه يحيي قبل ذلك قلوبًا ماتت وهي تمشي بين الناس. قد يكون الإنسان حيَّ الجسد، يجادل ويعمل ويأكل ويضحك، لكن قلبه مدفونٌ تحت ركام الشهوات، لا تهزه آية، ولا يوقظه قبر، ولا يرقُّ لأنين محتاج. ثم تمر به كلمةٌ من القرآن، فتدخل شقًّا صغيرًا في جداره، ويتسرب منها النور، وإذا بالقلب الذي ظن الناس أنه انتهى يعود إلى النبض. وهذه من أعظم آيات الإحياء: أن يستخرج الله من قسوة الإنسان خشوعًا، ومن ضياعه وجهة، ومن رماده جمرةً تتقد بالشوق إليه. ولذلك لا ينبغي أن ييأس أحدٌ من قلبه؛ فالذي يحيي الأرض بعد موتها قادرٌ على أن يحيي فيك المعنى الذي ظننت أنه مات، وأن يعيد إلى روحك قدرتها على البكاء والرجوع.

وإذا كان الله هو الذي يحيي ويميت، فلماذا يتعلق القلب بالمخلوق كأنه يملك له حياةً أو يدفع عنه موتًا؟ ولماذا يبيع الإنسان مبادئه خوفًا على رزقٍ أو أجلٍ كتب الله حدودهما؟ إن التحرر الحقيقي يبدأ حين يعرف العبد أن حياته ليست في خزانة البشر، وأن الموت لا يأتي بتوقيع الطغاة استقلالًا، وأن أحدًا لا يستطيع أن ينقص من عمره لحظةً لم يكتبها الله، ولا أن يزيد فيه لحظةً انتهى أجلها. حينها لا يصبح متهورًا، بل يصبح عزيزًا؛ يأخذ بالأسباب، ويحفظ نفسه، لكنه لا يعبد السبب، ولا يخشى له، ولا يمنحه مقام الربوبية في قلبه.

ثم يكتمل المعنى بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. كل شيء، بلا استثناءٍ يعجزه، وبلا حاجزٍ يحد قدرته، وبلا قوةٍ تقف أمام إرادته. غير أن قدرة الله ليست شبيهةً بقدرات المخلوقين، بل قدرةٌ تليق بجلاله، لا يحيط العقل بكيفيتها ولا يقيسها على نفسه؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وحين تدخل هذه الحقيقة إلى القلب تتساقط كلمة «مستحيل» من قاموس الرجاء؛ فكم من بابٍ تراه مغلقًا لأنك تقيسه بمفتاحك، ولو قسته بقدرة الله لما رأيت إلا عبدًا واقفًا أمام ربٍّ لا يعجزه شيء. إن الأمل في الإيمان لا ينبع من سهولة الظروف، بل من كمال القدرة التي تدبرها، والدعاء لا يقوم على أن الأسباب توشك أن تستجيب، بل على أن الله قادرٌ على أن يخلق سببًا لم يكن، وأن يفتح طريقًا في الموضع الذي لا ترى فيه إلا الجدار.

الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء

ثم تبلغ السورة مقامًا من أعظم مقامات المعرفة بالله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾. أربعة أسماء تفتح للقلب آفاق الزمن والوجود والإدراك، ثم تطويها كلها تحت جلال الواحد سبحانه. هو الأول الذي ليس قبله شيء؛ كانت الأشياء عدمًا وكان الله، ولم يكتسب كمالًا بخلقها، ولم يزدد ملكًا بوجودها، ولم يكن محتاجًا إلى العالم ثم استغنى به. وكل بدايةٍ نعرفها مسبوقةٌ بغيرها، إلا وجوده سبحانه فلا بداية له، لأنه خالق البدايات والزمن الذي تُقاس به. وحين يعرف القلب أن الله هو الأول، يدرك أن أصل كل نعمةٍ منه، وأن كل خيرٍ وصل إليه

كانت بدايته عند الله قبل أن يظهر على أيدي الناس. قد تشكر إنسانًا أحسن إليك، وهذا من الوفاء، لكن قلبك يعبر من اليد إلى مَن سخَّرها، ومن السبب إلى مَن أنشأه، ومن العطاء الظاهر إلى المنعم الأول.

وهو الآخر الذي ليس بعده شيء؛ تنتهي الممالك ويبقى ملكه، وتسقط الأسماء ويبقى اسمه، وتذبل الوجوه ويبقى وجهه الكريم، وتفرغ الأيدي مما جمعت ثم تقف بين يديه. وكل ما نراه يسير نحو نهايته، وإن بدا في ذروة القوة والازدهار؛ فالأبنية يزحف إليها البلى، والأجساد يكتب عليها الضعف، والحضارات تحمل في صعودها بذور أفولها، ولا يبقى إلا الله. وما دام هو الآخر، فإليه ينبغي أن تنتهي الغايات كلها؛ لأن العمل الذي لا ينتهي إليه سينتهي إلى العدم، والحب الذي يقطع القلب عنه سيتحول يومًا إلى حسرة، والمجد الذي لا يُبتغى به وجهه ستأكله حفرةٌ صغيرة لا تفرق بين مشهورٍ ومجهول.

إن مأساة الإنسان أنه يعرف أن الأشياء تنتهي، ثم يبني قلبه فيها كأنها لا تنتهي. يعرف أن الشباب عابر، لكنه يعبد صورته؛ ويعرف أن المال مفارق، لكنه يستودعه أمنه؛ ويعرف أن ثناء الناس يتبدل، لكنه يجعل قيمته رهينةً بألسنتهم. تأتي الآية لتعيد ترتيب الوجهة: إذا كان الله هو الآخر، فاجعل آخر قصدك إليه، واجعل وراء كل غايةٍ غايةً أعلى هي رضاه. اعمل في الدنيا، وابنِ، واكتب، وأصلح، وأحبب، ولكن اترك في كل شيءٍ نافذةً مفتوحةً على الله؛ حتى إذا انتهى الشيء بقي لك منه ما كان متصلًا بالباقي سبحانه.

وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، ظهرت دلائل وجوده ووحدانيته في كل ما خلق، فلا تكاد تقع العين على شيءٍ إلا وجدت فيه أثرًا من آثار القدرة والحكمة، ولا ينظر العقل في نظامٍ إلا دله على المنظِّم. لكنه، سبحانه، لا تحيط به الأبصار، ولا تدرك ذاته الأوهام؛ فظهوره ظهور سلطانٍ وآياتٍ وبراهين، لا إحاطة مخلوقٍ بحقيقة الخالق. وهو الباطن الذي ليس دونه شيء، القريب بعلمه وإحاطته، الذي لا تحجبه الظواهر عن البواطن، ولا تستر عنه الجدران أسرار النفوس. يعلم الهمسة قبل أن تصير صوتًا، والدمعة قبل أن تغادر العين، والجرح الذي عجز صاحبه عن وصفه، والنية التي اختبأت وراء العمل فغيَّرت قيمته كلها.

وبين الظاهر والباطن يعيش المؤمن توازنًا بديعًا؛ يرى الله بآياته في كل شيء، لكنه ينزهه عن أن يكون كشيء، ويشعر بقربه فلا يتوهم قربًا يشبه قرب الأجسام، ويعرف أنه سبحانه محيطٌ به علمًا وقدرةً ورحمةً دون أن يقيس ذلك على أوصاف البشر. فالله لا تُدركه الخيالات، وكل صورةٍ يرسمها الوهم فالله بخلافها؛ إنما نعرفه بما عرَّف به نفسه، فيورثنا ذلك حبًّا تظلله الهيبة، وقربًا يحرسه التنزيه، ومعرفةً لا تتجاوز حدود العبودية.

ثم يختم هـذه الآفـاق كلهـا بقوله: ﴿وَهُـوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. وكأن العلم الإلهي سماءٌ تحيـط بالأسماء الأربعة ومعانيها، فهو يعلم البدايات قبل ظهورها، والنهايات بعد انقضائها، والظواهر على امتدادها، والبواطن في أخفى أعماقها. لا يحتاج إلى اعترافك ليعرف، ولا إلى تقريرٍ يخبره، ولا إلى شاهدٍ يثبت له ما وقع. يعلم الصورة التي رآك النـاس عليها، والحقيقـة التي كنت عليها في داخلك، ويعلم خيرًا فعلته فلم ينتبه إليه أحد، وألمًا كتمته حتى ظن الجميع أنك بخير.

وفي هذا العلم رهبـةٌ للمخادع، لكنـه سكينةٌ للمظلوم والمنسي والمخلص. مـا أوجـع أن يفهمـك الناس على غير مرادك، ولكن ما أرحم أن الله يعلم! وما أثقل أن تبذل ولا يراك أحد، ولكن ما أجمل أن عين العلم الإلهي لم تغفل عنك! قد يضيع حقك في محكمة الأرض، وقد تُحرَّف قصتك على ألسنة النـاس، وقـد يُنسـب جهـدك إلى غيرك، لكن شيئًا لا يضيع في علم الله. وحسـب القلب المكدود أن يرفـع رأسـه من ضجيج الأحكام البشرية ويقـول: ربي يعلم. ليسـت كلمةً لتسكين العجز، بل حقيقةٌ كبرى تعيد إلى الميزان عدله؛ لأن الذي يعلم كل شيءٍ سيقيم يومًا لا تضيع فيه ذرة، ولا تُنسى فيه دمعة، ولا يُبخس فيه عمل.

العرشُ فوق الخلق والعلمُ محيطٌ بكل نجوى

تأملات في الآيتين الرابعة والخامسة

يقول الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

بعد أن عرَّفنا الله أنه الأول والآخر والظاهر والباطن، ينقل أبصارنا إلى مشهد الخلق والتدبير، فلا نرى سماءً قائمةً بذاتها، ولا أرضًا مكتفيةً بقوانينها، بل نرى خلقًا صدر عن إرادة وقدرة، ثم لم ينفصل لحظةً عن علم خالقه وسلطانه. خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، وهو القادر على أن يقول للشيء كن فيكون، ليعلِّم الإنسان أن القدرة لا تناقض التدرج، وأن الإتقان قد يجري في مراحل، وأن الحكمة لا تستعجل الثمرة قبل اكتمال أسبابها. وما أكثر ما يفسد الإنسان الأشياء لأنه يريد حصادها قبل نضجها، ويريد أن يعبر المسافة دون أن يسير، وأن يصير في لحظةٍ ما لا تصنعه إلا أعوام المجاهدة! يأتي نظام الخلق ليقول له: لا تحتقر الخطوة لأنها صغيرة، فالوجود العظيم الذي تراه جرى خلقه في تقديرٍ ومراحل، وربك الذي لا يعجزه شيء علَّمك أن لكل بناءٍ سننه، ولكل نضجٍ زمنه.

ثم استوى سبحانه على العرش استواءً يليق بجلاله، كما أخبر عن نفسه، من غير تشبيهٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيل، ومن غير أن تتطاول الأوهام إلى ما لا سبيل لها إلى إدراكه؛ فنثبت ما أثبته الله لنفسه، وننزهه عن مشابهة خلقه، ونقف حيث وقف الوحي، خاشعين أمام جلال الغيب. والعرش أعظم المخلوقات، لكن عظمة المخلوق لا تكون شيئًا أمام عظمة الخالق، كما أن سعة الملك لا تحجب علمه عن أدق التفاصيل. ولهذا تنتقل الآية انتقالًا مدهشًا من العرش إلى الحبة التي تلج في الأرض، ومن اتساع السماوات إلى السر الدقيق الذي يعرج فيها، لتخبرك أن علو الله لا يعني غياب علمه، وأن عظمته لا تشغله عن ضعفك، وأن تدبير المجرات لا يصرف عنه أنين قلبك الصغير.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ يعلم كل قطرة ماءٍ تتسلل في مسام التراب، وكل بذرةٍ تنشق عنها الظلمة، وكل جسدٍ أودع جوف الأرض، وكل معدنٍ أخفته الطبقات، وكل جذرٍ يبحث في صمته عن رزقه. يعلم الداخل والخارج، المدفون والمنبعث، ما غاب عن العيون وما ظهر لها. وفي هذه الحركة بين الولوج والخروج صورةٌ خفية للإنسان نفسه؛ فكم من فكرةٍ تلج في قلبه ثم تخرج كلمة، وكم من شهوةٍ تدخل عليه ثم تخرج فعلًا، وكم من آيةٍ تستقر في داخله ثم تخرج نورًا في سلوكه. لا شيء يدخل أعماقك إلا والله يعلمه، ولا شيء يخرج منك إلى العالم إلا وهو بصيرٌ به.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ ينزل المطر والرزق والوحي والتقدير، وتعرج الملائكة والأعمال والدعوات، وتتحرك بين السماء والأرض حياةٌ غيبية وكونية لا تحيط بها حواسنا. نحن ننظر إلى السماء فنراها صفحةً بعيدة، لكن القرآن يكشفها طريقًا مفتوحًا بين الخلق وأمر الله؛ منها ينزل ما به تحيا الأجساد وما به تحيا القلوب، وإليها يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح. وما الدعاء الذي يخرج من قلبك إلا جزءٌ من هذا العروج العظيم؛ قد تهمس به في غرفةٍ مغلقة، وتظن أن صوتك أضعف من أن يتجاوز جدرانها، لكنه لا يحتاج إلى قوة الصوت حتى يبلغ، لأن الله يسمع السر وأخفى.

ثم تأتي الكلمة التي يجد فيها الخائف مأمنه، والوحيد أنسه، والمراقب رادعه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. معيةٌ تليق بالله، معية علمٍ وإحاطةٍ وسمعٍ وبصرٍ وسلطان، لا معية اختلاطٍ أو حلولٍ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. معك في الموضع الذي لا يعرفك فيه أحد، وفي الطريق الذي تقطعت بك فيه الأسباب، وفي اللحظة التي انصرف عنك فيها أقرب الناس، وفي المعركة التي لا يرى الآخرون جراحك فيها. لست خارج علمه حين تختبئ، ولا خارج قدرته حين تضعف، ولا خارج سمعه حين تعجز عن رفع صوتك.

غير أن هذه المعية ليست مجرد عزاءٍ ناعم؛ إنها مسؤوليةٌ أخلاقية تهز الضمير. إذا كان الله معك بعلمه أينما كنت، فكيف تصنع في الخلوة وجهًا يناقض وجهك بين الناس؟ وكيف تهون عليك معصيةٌ لمجرد أن أعين البشر غابت عنها؟ إن المؤمن لا يستقيم لأن المجتمع يراقبه، بل لأن الله بصيرٌ به؛ ولذلك قد يكون أصدق ما فيه هو ما لا يراه الناس، وقد تكون عبادته في الغياب أعمق من عبادته في العلن. أما المنافق فيعيش تحت سلطان العيون؛ إذا حضرت تجمَّل، وإذا غابت تحلل من صورته، لأنه لم يتحرر بعد من عبادة نظر البشر إلى مقام مراقبة الله.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لم يقل فقط: بما تقولون، لأن العمل هو الترجمة التي تكشف صدق المعنى، ولم يقل: ببعض أعمالكم، لأن البصر الإلهي لا تفوته حركةٌ ولا مقصد. يرى اليد حين تعطي وحين تمنع، ويرى الخطوة حين تتقدم إلى الحق وحين تتراجع خوفًا، ويرى العمل الواحد وقد تتشابه صورته في الظاهر وتختلف قيمته باختلاف القلب الذي خرج منه. ورب درهمٍ صغيرٍ رآه الله كبيرًا لأنه انتُزع من حاجةٍ وإخلاص، ورب مالٍ كثيرٍ لم يزن عنده شيئًا لأنه خرج طلبًا للصورة والذكر.

ثم تعود السورة إلى الحقيقة التي بدأت بها: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. والتكرار هنا ليس إعادةً لفظية، بل تثبيتٌ للحقيقة في موضعٍ جديد؛ فقد ذُكرت أولًا مع الإحياء والإماتة والقدرة، ثم ذُكرت هنا بعد الخلق والعلم والمعية والبصر، لتطوِّق القلب من كل جانب. الملك له في البداية، وله في النهاية، وله في الظاهر، وله في الباطن، وما نحن إلا حركةٌ قصيرة داخل هذا الملك.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ لا يرجع بعضها ويبقى بعضها شاردًا في أيدي الخلق، بل ترجع الأمور كلها، بما فيها القضايا التي لم تُحسم، والحقوق التي لم تُرد، والدماء التي لم يُقتص لها، والأسئلة التي مات أصحابها قبل أن يجدوا جوابها. كل ملفٍ مفتوح في الأرض له يومٌ يُعرض فيه على العليم، وكل حكايةٍ قُطعت قبل خاتمتها لها خاتمةٌ عند الله. وما أحوج المظلوم إلى هذه الآية حين يرى الباطل وقد كتب الرواية كما يشاء؛ فالرواية لم تنته بعد، والحكم البشري ليس السطر الأخير، والذين ظنوا أن القوة منحتهم حق إغلاق القضية سيُرجعون معها إلى مَن لا يُشترى حكمه ولا يُخدع علمه.

كيف يولد الزمن من قبضة القدرة

تأمل في الآية السادسة

يقول الله تعالى:

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

يتداخل الليل والنهار في حركةٍ ناعمة لا تسمع لها صريرًا، وكأن الزمن بابٌ عظيم تفتحه القدرة الإلهية وتغلقه دون أن يختل نظام الكون. لا يهجم النهار دائمًا دفعةً واحدة، ولا يبتلع الليل الضوء فجأةً، بل يولج الله أحدهما في الآخر، يسلخ من الظلمة خيطًا من النور، ثم يمده حتى تنكشف الوجوه، ويأخذ من ضوء النهار قليلًا قليلًا حتى يسكن العالم في جناح الليل. وفي هذا الإيلاج معنى يتجاوز الظاهرة الكونية إلى سر الحياة كلها؛ فالتحولات الكبرى كثيرًا ما تبدأ خفية، ويتسلل التغيير إلى الأرواح كما يتسلل الفجر إلى الليل، فلا ينتبه الإنسان إلى أنه صار شخصًا آخر إلا بعد أن تقطع الرحلة شوطًا بعيدًا.

إن القسوة لا تهبط على القلب غالبًا في لحظة، وإنما يولجها الإهمال فيه شيئًا فشيئًا؛ ذنبٌ يمر بلا توبة، وآيةٌ تُسمع بلا إصغاء، ومحتاجٌ يُرى بلا رحمة، وأملٌ يطول بلا ذكر، حتى يجد الإنسان نفسه في ليلٍ لا يعرف متى ابتدأ. وكذلك الهداية قد تبدأ بخيطٍ رقيق: سؤالٍ صادق، أو دمعةٍ خفية، أو آيةٍ توقفت في الصدر، أو ندمٍ لم يره أحد، ثم يولج الله النهار في ذلك الليل حتى يشرق القلب. فلا تحتقر بدايات النور فيك، ولا تستصغر حركةً صادقةً نحو الله؛ فقد يكون الفجر كله مختبئًا في ذلك الخيط الضعيف.

والليل ليس شرًّا خالصًا، كما أن النهار ليس خيرًا بمجرد ضيائه؛ لكلٍّ منهما مهمته في ميزان الخلق. في الليل سكينةٌ وسترٌ وعودةٌ إلى الداخل، وفي النهار حركةٌ وانتشارٌ وابتغاءٌ للفضل. وكذلك حياة القلب تحتاج أوقات ظهورٍ وعمل، وأوقات خلوةٍ وتأمل؛ فمن عاش للظهور وحده احترق تحت عيون الناس، ومن اعتزل كل حركةٍ عجز نوره عن الوصول إلى الآخرين. الحكمة أن يولج الإنسان شيئًا من ليل الخلوة في نهار العمل، فيخرج إلى الناس ومعه سرٌّ بينه وبين الله، وأن يولج شيئًا من نهار الرسالة في ليل عزلته، فلا تتحول الخلوة إلى هروبٍ من واجب الإصلاح.

ثم تنتقل الآية من تقلب الليل والنهار في الأفق إلى تقلب الخواطر في الصدور: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. والذي يعلم كيف يتسلل النور في الظلام يعلم كيف تتسلل النية إلى العمل،

وكيف يختبئ الرياء وراء العبادة، وكيف يختلط الخوف بالرجاء، والحب بالرغبة، والصدق بحظوظ النفس. و«ذات الصدور» ليست فقط الكلمات التي لم نقلها، بل السرائر الملازمة للصدر، والدوافع التي تتكون قبل أن نملك لها اسمًا، والميول العميقة التي قد يخفى بعضها على الإنسان نفسه. قد نجهل لماذا فعلنا، ونصنع لأنفسنا تفسيرًا جميلاً، لكن الله يعلم الجذر الأول الذي نبت منه الفعل.

هذه المعرفة الإلهية لا ينبغي أن تدفع المؤمن إلى اليأس من اضطراب قلبه، بل إلى الصدق في إصلاحه. فالله الذي يرى دخان النفس يرى أيضًا شرارة الإخلاص الصغيرة تحت الرماد، ويعلم المجاهدة التي تقع خلف الوجه الهادئ، ويعرف كم مرةً قاوم العبد خاطرًا سيئًا لم يعلم به أحد. البشر يحاسبونك غالبًا على النتيجة الظاهرة، أما الله فيعلم الطريق الداخلي كله؛ يعلم أنك وصلت متعبًا، وأنك قاومت ما لم يقاومه غيرك، وأن الخطوة الصغيرة التي خطوتها كلّفتك حربًا كاملة في صدرك.

وكما يولج الله النهار في الليل، يستطيع أن يولج نور الطاعة في ظلمة العادة، وأن يدخل يقينًا على شك، وسكينةً على خوف، ورحمةً على قسوة. فلا تقل: هذا قلبي وقد صار كما صار ولا سبيل إلى تغييره؛ فإن القلوب تحت سلطان مَن يقلب الليل والنهار، ومن أخرج الفجر من جوف الظلمة قادرٌ على أن يخرج من صدرك فجرًا جديدًا. لكن عليك أن تفتح للنور منفذًا، وأن تصدق في طلبه، وأن تكف عن حماية الظلام الذي تشكو منه؛ فبعض الناس يسألون الله النور، ثم يغلقون نوافذهم كلما اقترب.

وهكذا تنتهي الآيات الست الأولى وقد أعادت بناء رؤية الإنسان كلها: الوجود مسبِّح، والملك لله، والحياة والموت بيده، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، خلق ودبَّر، وعلم وأحاط، وهو مع عباده بعلمه أينما كانوا، وإليه ترجع الأمور، وبيده حركة الليل والنهار، وهو أعلم بأخفى ما تضمر الصدور. وبعد أن يملأ القلب بهذه المعرفة، سيأتيه الأمر بالإيمان والإنفاق؛ لأن التكليف في القرآن لا ينفصل عن التعريف بالله. لن يقول لك: أنفق، قبل أن يريك أن الملك له؛ ولن يدعوك إلى الإيمان قبل أن يكشف لك أن الوجود كله شاهدٌ به؛ ولن يحذرك من ظلمة القيامة قبل أن يفتح لك في الدنيا باب النور. فالمعرفة هي الجذر، والطاعة ثمرتها، وكل عملٍ لم ينبت من معرفة الله يوشك أن يجف عند أول ريح.

المالُ الذي مرَّ بأيدينا ولم يكن لنا

تأملات في الآيات من السابعة إلى الحادية عشرة

يقول الله تعالى:

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

بعد أن طافت السورة بالقلب في آفاق الملك والقدرة والعلم، وبعد أن أرته السماوات مسبِّحة، والأرض خاضعة، والليل داخلًا في النهار، والنهار داخلًا في الليل، تهبط به الآن إلى الميدان الذي تُختبر فيه كل تلك المعارف: ميدان الإيمان والإنفاق. فليس المقصود من معرفة أن الملك لله أن تبقى هذه الحقيقة فكرةً جليلةً في الذهن، وإنما أن تمتد إلى اليد فتفتحها، وإلى النفس فتحررها، وإلى المال فتغيِّر معنى وجوده فيها. وكأن الآيات السابقة كانت تسأل القلب: هل عرفت مَن هو الله؟ ثم تأتي هذه الآيات لتسأله: فما أثر هذه المعرفة فيك؟ لأن المعرفة التي لا تغيِّر صاحبها قد تكون معلومةً باردة، أما المعرفة الحية فهي التي تتحول في السلوك خشيةً، وفي الشدة ثباتًا، وفي النعمة شكرًا، وفي المال بذلًا.

الإيمان الذي تظهر حقيقته في اليد

يأتي الأمر جامعًا بين أصلين عظيمين: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا﴾. الإيمان في القلب، والإنفاق حركةٌ في العالم، وبينهما رابطةٌ دقيقة؛ لأن ما يستقر في القلب لا بد أن تظهر آثاره على ما في اليد. فحين يؤمن الإنسان بأن الله هو الرازق، يهون عليه أن يبذل، وحين يؤمن بأن الآخرة هي دار البقاء، لا يعود المال الخارج ضياعًا، وحين يؤمن بأن وعد الله حق، يرى الصدقة انتقالًا من خزانةٍ مهددة بالفناء إلى خزانةٍ لا تنفد. ولهذا لا يعالج القرآن البخل بوصفه عيبًا ماليًّا فقط، بل بوصفه خللًا في الرؤية؛ فالممسك قد لا يكون قليل المال، لكنه قليل اليقين، يخشى الفقر كأن الله لم يتكفل بالرزق، ويتشبث بما في يده كأن يده أشد أمنًا من خزائن الله.

وليس كل إنفاقٍ ثمرة إيمان، فقد ينفق الإنسان ليراه الناس، أو ليفرض على من أعطاهم سلطانًا خفيًّا، أو ليصنع من عطائه مرآةً يتأمل فيها فضله. لكن الإنفاق الذي تريده السورة هو الذي يخرج من عبودية الله ويعود إليها؛ إنفاقٌ لا يجرح كرامة المحتاج، ولا يمنُّ عليه، ولا يحوِّله إلى شاهدٍ دائم على سخاء المعطي. فاليد التي تعطي لله لا ترى نفسها صاحبة فضل، وإنما ترى الله قد أكرمها بأن جعلها معبرًا لرحمته، وترى الفقير رسول حاجةٍ جاء لينقذ بعض مالها من الفناء. وفي هذا انقلابٌ كامل للمنظور: ليس المحتاج وحده هو المستفيد من عطائك، بل أنت المستفيد الأكبر؛ لأنه حمل إليك بابًا من أبواب الأجر، وأتاح لما في يدك أن يتحول من شيءٍ ستتركه إلى شيءٍ ستلقاه.

ثم تكشف الآية حقيقة الملك بلفظة تهدم استبداد النفس بالمال: ﴿مِّمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾. لم يقل: أنفقوا من أموالكم، مع أن القرآن قد ينسب المال إلى الناس من جهة انتفاعهم وتصرفهم، لكنه اختار هنا لفظ الاستخلاف كي يوقظ الحقيقة الأعمق: أن المال سبقك وسيبقى بعدك، وأنك لست مالكه الأول ولا الأخير، وإنما حلقةٌ في سلسلة انتقاله. لقد كان في يد إنسانٍ قبلك، ثم غادره إليك، وسيغادر يدك إلى وارثٍ أو مشترٍ أو محتاجٍ، ولن يأخذ منك إذنًا حين يحين انتقاله. أنت مستخلفٌ فيه، أي إنك مؤتمنٌ زمنًا محدودًا، ممتحنٌ في طريق اكتسابه وطريقة إنفاقه، ومسؤولٌ عن موضعه من قلبك: أفي يدك بقي، أم تسلل إلى داخلك حتى صار مالكًا لك؟

إن الاستخلاف يمنح المال وظيفةً أخلاقية؛ فالمال ليس كتلةً محايدةً تتكدس، بل امتحانٌ يتحرك بين الناس. قد يكون في يد رجلٍ جسرًا تعبر عليه حاجات الضعفاء، وقد يكون في يد آخر جدارًا يحجب الحقوق ويزيد الفوارق ويغذي الكبر. لا يقدّس الإسلام الفقر لذاته، ولا يدين الغنى لذاته، وإنما ينظر إلى الإنسان وهو يحمل النعمة: هل عرف مصدرها؟ وهل أدى حقها؟ وهل بقي سيدًا عليها أم صارت سيدةً عليه؟ فكم من فقيرٍ مستغنٍ قلبه بالله، وكم من غنيٍّ تسكنه مجاعةٌ لا يملؤها شيء؛ لأن الفقر الحقيقي ليس قلة ما تملك، بل شعورك الدائم أن ما تملك لا يكفيك، والغنى الحقيقي ليس كثرة الخزائن، بل تحرر الروح من العبودية لما فيها.

وإذا كنت مستخلفًا، فإن كل نعمةٍ فيك داخلةٌ في معنى الإنفاق. ليس المال وحده مما استُخلفت فيه، فعلمك مالٌ من نوعٍ آخر، ووقتك ثروةٌ تنقص كل لحظة، وقوتك وديعة، وكلمتك قدرة، ومكانتك باب، وحنانك رزق، وقدرتك على الإصغاء إلى قلبٍ منكسر صدقةٌ لا تظهر في دفاتر الحساب. قد لا يملك الإنسان ذهبًا يعطيه، لكنه يملك وجهًا يمكن أن يرفق، ولسانًا يمكن أن يجبر، ووقتًا يمكن أن يبذل، وخبرةً يمكن أن تنقذ. ومن ضيق معنى الإنفاق حتى حبسه في النقود ضيَّع مساحاتٍ واسعة من الخير، فالوجود كله عطاءٌ متبادل، وكل ما أودعه الله فيك يمكن أن يكون سبيلًا إليه إذا أخرجته من دائرة الذات إلى نفع خلقه.

ثم يعد الله الذين صدَّقوا إيمانهم بالإنفاق: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. وما يسميه الله كبيرًا لا تقيسه أوهام البشر؛ لأن الكرم يأخذ قدره من كرم الواهب، والأجر الذي ينسبه العظيم إلى الكِبَر لا تحيط به مخيلة. واللافت أن الآية لا تعد المنفق فقط بتعويض ما خرج منه، بل بأجرٍ كبير، كأن المال كان بذرةً صغيرة أودعها في تربة الغيب، ثم سيجدها يوم القيامة بستانًا لا يعرف حدود نمائه. إن المؤمن لا يتعامل مع الغيب بوصفه فراغًا تسقط فيه الأشياء، بل بوصفه الحقيقة التي تحفظ فيها الأعمال؛ فما خرج لله لم يذهب، وما بقي للنفس هو المهدد بالذهاب.

سؤالٌ يهزُّ غفلة القلب

ثم يأتي السؤال القرآني لا ليستفهم عن شيءٍ مجهول، ولكن ليوقظ إنسانًا أحاطت به دلائل الإيمان من كل جانب: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. ما الذي يمنعكم؟ ما الحجاب الذي بقي بعد أن سبَّح الوجود كله أمامكم؟ أين تهربون من حقيقةٍ تنطق بها فطرتكم، ويعلنها الكون، ويدعوكم إليها الرسول؟ إن التعبير ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ يحمل عتابًا ترفرف فيه الرحمة، كأن الله ينادي عباده: ماذا أصابكم حتى ابتعدتم عن النور الذي خُلقتم لمعرفته؟ وأي شيءٍ وجدتموه في الضياع حتى رضيتم به بدلًا من القرب؟

وقد يكون الخطاب للمؤمنين دعوةً إلى تجديد الإيمان وتكميله، فالإيمان ليس كلمةً تُقال مرةً ثم يفرغ الإنسان منها، بل حياةٌ تحتاج إلى مددٍ مستمر. في القلب مواطن قد دخلها النور، ومواطن ما زالت تحكمها عادات الجاهلية القديمة؛ يؤمن اللسان، ثم يبقى الخوف في زاويةٍ منه متعلقًا بالبشر، ويصدق العقل أن الرزق من الله، ثم تضطرب اليد حين تدعى إلى العطاء، ويقر الإنسان بالآخرة، ثم يعيش بعض أيامه كأن الدنيا آخر الآفاق. ولهذا يتكرر نداء الإيمان للمؤمن؛ لأن المطلوب أن ينتقل إيمانه من المعرفة إلى الذوق، ومن الذوق إلى العمل، ومن بعض القلب إلى القلب كله.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾؛ يا لها من كرامةٍ للإنسان أن يأتيه رسولٌ من الله يدعوه إلى ربه، فلا يتركه تائهًا بين تصورات العقل المحدود، ولا أسيرًا لخرافات الأرض، بل يأخذ بيده إلى معرفةٍ صافية مصدرها الوحي. ولم يقل: يدعوكم لتؤمنوا بإلهٍ غريبٍ عنكم، وإنما قال: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾؛ بالذي خلقكم، وربّاكم بالنعم، وحفظكم في مراحل الضعف، وأمدكم قبل أن تعرفوا كيف تسألون. فالدعوة إلى الله ليست دعوةً إلى مجهول، بل عودةً إلى الرب الذي كانت كل نعمةٍ في حياتك أثرًا من ربوبيته.

وقد أخذ الله ميثاقكم، بما ركز في الفطرة من الإقرار به، وبما أقام من البراهين، وبما جاءت به الرسالات من عهد الإيمان والطاعة: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. والميثاق ليس

كلمةً عابرة، إنه يحمّل الإيمان جلال العهد. ليست علاقتك بالله فكرةً قابلةً لأن تستبدلها كلما تغير مزاجك، بل ميثاقٌ يطلب الوفاء، فإذا قلت: آمنت، فقد دخلت في عهد أن يكون الله ربك ومعبودك وغايتك، وأن يكون الوحي مرجعك حين تتنازعك الأهواء، وأن تردَّ ما فيك وما عندك إلى حكمه. وكل معصيةٍ ليست مجرد مخالفةٍ منفصلة، بل صدعٌ صغير في جدار الميثاق، وكل توبةٍ صادقة ترميمٌ للعهد وعودةٌ إلى موضع الوفاء.

القرآنُ عمليةُ إخراجٍ من الظلمات

ثم يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. ليس القرآن زينةً لغوية توضع على رفوف البيوت، ولا بركةً صوتيةً منفصلةً عن حركة الوعي والحياة، وإنما هو قوة إخراج؛ جاء ليأخذ الإنسان من مكانٍ إلى مكان، ومن حالٍ إلى حال، ومن رؤيةٍ إلى رؤية. ومن قرأ القرآن ولم يسمح له أن ينقله، فقد يكون قد لامس ألفاظه دون أن يدخل في مقصده. إن الآية لا تقول: ليخبركم عن الظلمات والنور، بل ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾؛ فالوحي يدٌ ممتدة، وبابٌ مفتوح، ورحلة تحرر من كل ما يطفئ البصيرة ويستعبد الروح.

وجمع الله الظلمات وأفرد النور؛ لأن طرق الضلال كثيرة متشعبة، أما الحق في جوهره فواحد. للهوى ألف قناع، وللباطل ألف طريق، وللإنسان قدرةٌ مذهلة على أن يضل في اتجاهاتٍ متناقضة، لكن النور يجمعه على الصراط الذي لا يتعدد. ظلمة الشرك، وظلمة الجهل، وظلمة الشهوة، وظلمة الخوف من الخلق، وظلمة احتقار النفس، وظلمة الكبر، وظلمة الحياة بلا غاية؛ قد تختلف أسماؤها، لكنها تشترك في أنها تحجب الإنسان عن رؤية الله ورؤية نفسه والعالم على الحقيقة. أما النور فهو أن تنكشف الأشياء في مواضعها: أن ترى الخالق خالقًا والمخلوق مخلوقًا، والدنيا ممرًّا والآخرة مقرًّا، والنعمة أمانةً والابتلاء تربيةً، والوحي ميزانًا والهوى متهمًا.

والإخراج يفيد أن الإنسان قد يأنس بالظلمة حتى يقاوم من يريد إنقاذه منها. فَمَن طال مقامه في العتمة تؤلمه عيناه أول ما يواجه الضوء، وقد يظن الألم حجةً على فساد النور، مع أن الخلل في العين التي أدمنت الظلام. وكذلك الوحي؛ حين يدخل إلى حياةٍ رتبتها الأهواء، قد يصدم عاداتٍ استقرت، ويهدم تصوراتٍ منحرفةً أحبها الإنسان، ويطالبه أن يفارق صورةً قديمةً من نفسه. فيحسب أن الدين يضيّق عليه، بينما هو يحرره من القفص الذي ظنه بيتًا. النور لا يؤلم لذاته، لكنه يكشف الجروح التي أخفاها الظلام، ولا بد للشفاء من لحظة انكشاف.

وأعظم ما في التعبير أن المخرج هو الله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ﴾، ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾. فالرسول ﷺ عبد الله الذي يتلقى ويبلغ، والآيات بينات، لكن الهداية فضلٌ من الله، يفتح بها القلب ويهيئه

للتلقي. ولهذا يظل المؤمن مفتقراً إلى ربه حتى وهو يقرأ كلامه؛ فقد تمر الآية على اللسان مراتٍ ولا تفتح بابها، ثم يشاء الله في لحظة صدقٍ أن تقع في موضعها من القلب، فإذا بها تعيد تفسير حياته كلها. ليست العبرة بكثرة المرور على الألفاظ وحدها، بل بأن يأذن الله للنور أن ينفذ؛ ولذلك يسأل العبد ربه الهداية وهو على الصراط، لأن لكل مقامٍ من النور نورًا فوقه، ولكل معرفةٍ بابًا أعمق منها.

ثم تأتي الخاتمة التي تكشف أن الأوامر كلها نابعةٌ من الرحمة: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. لقد أنزل الآيات لأنه رؤوفٌ بكم، ودعاكم إلى الإنفاق لأنه رحيمٌ بكم، وحذركم من الدنيا لأنه لا يريد لكم أن تُخدعوا، وفتح باب التوبة لأنه يعلم ضعفكم. نحن نسيء فهم التكليف حين نراه عبئًا فرضه الله لحاجةٍ منه إلى طاعتنا، تعالى عن ذلك؛ فالله غنيٌّ عنا، وإنما كانت أوامره خريطة نجاةٍ للإنسان. حين يمنعك، يحمي جوهرك من شيءٍ يهدمه، وحين يأمرك، يقودك إلى ما يزكيك، وحين يبتليك، قد يقطع عن قلبك حبالًا كانت تستعبده.

والرأفة أرقُّ الرحمة وألطفها؛ فكأن الآية تضع القلب بعد سؤال العتاب في حضن اللطف. إن الذي يقول لك: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ لا يطردك، بل يستدعيك؛ لا يفضح تيهك ليتشفى منك، بل يكشفه لينقذك. ولولا رأفته لتركك لما اخترت، ولولا رحمته لما أرسل إليك آيةً توقظك بعد كل غفلة. وكل وخزة ندمٍ تشعر بها هي أثر رحمة؛ لأن القلب الذي مات تمامًا لا يتألم من بعده، أما ألمك من قسوتك فدليل أن فيك موضعًا لم يزل يستقبل النور.

ما الذي يمنع اليد من أن تفتح؟

ثم يعيد القرآن السؤال، لكن هذه المرة في ميدان المال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ما الذي يحبسكم؟ ممَّ تخافون؟ ولمن تدخرون؟ إن السؤال يطارد الأعذار حتى يضع النفس أمام حقيقتها؛ فقد تقول: أخشى المستقبل، لكن مَن يملك المستقبل؟ وقد تقول: المال قليل، لكن مَن بارك في القليل حتى كفى، ونزع البركة من الكثير حتى لم يُغن؟ وقد تقول: سأعطي حين أستغني، لكن النفس التي لم تتعلم العطاء وهي تملك قليلًا قد لا تعطي حين تملك كثيرًا؛ لأن البخل لا يسكن مقدار المال، بل يسكن تصور القلب.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. يا لها من كلمةٍ تضع كل خزائن البشر أمام جنازة الزمن! إنكم ستمضون، وسيبقى ما في أيديكم، ثم تنتهي ملكية الجميع ولا يبقى إلا ملك الله. سُمِّي ما يرجع إليه ميراثًا، وهو المالك قبل ذلك وبعده، ليقرِّب إلى عقولنا صورة الرحيل المحتوم؛ فالإنسان يجمع، ويحسب، ويحرس، ويخاصم، ثم تأتيه لحظةٌ يترك فيها الحساب مفتوحًا والحارس واقفًا والخصومة معلقة، ويخرج وحده من كل ما سماه «ملكي». المال الذي بخلت به لن يموت معك وفاءً، بل سينتقل سريعًا إلى يدٍ أخرى قد تنفقه فيما لم ترض، ويبقى عليك حساب منعه وطريق جمعه.

إذا كان لله ميراث السماوات والأرض، فإن المنفق الذكي هو الذي يبادر بإرسال نصيبه إلى أمامه قبل أن يُنتزع من يده. إنه لا يكره الدنيا ولا يهدم العمران، لكنه يعرف الفرق بين الانتفاع والافتتان؛ ينتفع بما أحل الله، ويبني ويزرع ويتجر، لكن المال لا يسكن أعمق موضعٍ في قلبه. وحين يأتي نداء الحق، يستطيع أن يفارق بعض ما في يده؛ لأنه لم يسمح للنعمة أن تتحول إلى قيد.

قيمةُ العطاء في زمن العُسرة

ثم تضع السورة ميزانًا بالغ الدقة للأعمال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾. ليست الأعمال متساويةً لمجرد أن صورها متشابهة؛ فالدرهم هو الدرهم، لكن اللحظة التي خرج فيها، والحاجة التي قاومها، والخطر الذي أحاط بصاحبه، ودرجة ظهور الحق أو خفائه؛ كل ذلك يدخل في وزن العمل. الإنفاق قبل الفتح كان إنفاقًا في زمنٍ لم تظهر فيه ملامح النصر كاملة، حين كان المؤمنون قلة، والمستقبل في حسابات الأرض غامضًا، والانتماء إلى الحق مكلفًا. أما بعد الفتح، فقد اتسعت الجماعة وظهرت القوة وأقبل الناس، فصار البذل أيسر، وإن بقي فاضلًا مأجورًا.

إن الله يزن كلفة الموقف في قلب صاحبه، لا صورته الخارجية وحدها. قد يقول رجلان كلمة الحق نفسها، لكن أحدهما يقولها في مجلسٍ يصفق له، والآخر يقولها في وجه قوةٍ تستطيع أن تؤذيه؛ فليست الكلمتان عند الله سواء. وقد يعطي اثنان المقدار نفسه، لكن أحدهما يخرجه من فائضٍ لا يشعر به، والآخر ينتزعه من حاجةٍ تمس جسده وأبناءه، فيعظم الثاني بما قام في قلبه من ثقة. وقد يثبت إنسانٌ حين أصبح الثبات موضةً اجتماعية، ويثبت آخر حين كان الثابت وحيدًا يُشار إليه بالاتهام؛ فالله الخبير لا تخدعه وحدة الصورة، لأنه يعلم الثقل الخاص الذي حمله كل قلب.

وفي الآية تمجيدٌ للسابقين الذين ينصرون الحق قبل أن يصبح منتصرًا في أعين الناس. أولئك الذين يصدقون الفجر والليل ما يزال كثيفًا، ويغرسون البذرة ولا ظلَّ لها، ويقفون مع الدعوة حين لا تمنحهم منصبًا ولا جاهًا، بل تطالبهم بالتضحية. إن أكثر الناس يعرفون الحق حين تصفق له الجموع، لكن أصحاب البصيرة يعرفونه حين يكون محاصرًا؛ وأكثرهم يحبون الثمرة، لكن السابقين أحبوا البذرة وسقوها من دموعهم وأموالهم.

وهذا المعنى لا ينحصر في لحظةٍ تاريخية، بل يتكرر في حياة الأمة والأفراد. للخير أوقات عزلة، وللحق أيامٌ يبدو فيها ضعيفًا، وللمشروعات العظيمة بداياتٌ فقيرة لا يلتفت إليها أحد. من جاء بعد نجاحها قد يبذل ويُحسن، لكن فضل البدايات يبقى لأولئك الذين احتملوا سخرية الناس ووحشة الطريق، ولم يكن لديهم من دليلٍ حسي على الثمرة إلا ثقتهم بالله وصحة المبدأ.

ومع بيان تفاوت الدرجات، لا تغلق الآية باب الفضل على المتأخرين: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾. هذا من عدل القرآن ورحمته، يثبت التفاضل دون أن يبخس المحسنين، ويعطي السابق مقامه دون أن يحطم اللاحق. فليس كل تفاوتٍ ظلمًا، وليس الاعتراف بفضل الأوائل إلغاءً لمن جاء بعدهم. الناس يتفاوتون في السبق والكلفة والصدق، لكن طريق الحسنى يتسع لكل مَن آمن وأنفق وقاتل في سبيل الحق. والتربية القرآنية لا تبني المجد بإهانة الآخرين، ولا ترفع طبقةً بسحق طبقة، وإنما تضع كل جهدٍ في موضعه الذي يعلمه الله.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، والخبير هو العليم ببواطن الأمور ودقائقها. يعلم متى أعطيت، ولماذا أعطيت، وما الذي كان في يدك حين أعطيت، وكم غالبت نفسك قبل أن تفتحها. قد يراك الناس متأخرًا وأنت عند الله سابقٌ بصدقك، وقد يرفعونك في مجالسهم وأنت عنده خفيفٌ بما داخل عملك من رياء. ليس المطلوب أن تحسن تشكيل صورتك، بل أن تصلح سريرتك أمام الخبير؛ فالموازين البشرية ترى الحجم، وميزان الله يرى الحقيقة.

من يقرض الغني الذي لا يحتاج؟

ثم تبلغ الدعوة إلى الإنفاق ذروةً من ذرى اللطف الإلهي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. الله الذي له ملك السماوات والأرض، والذي ترجع إليه الأمور، والذي له ميراث كل شيء، يسمي ما تنفقه قرضًا! ليس لأنه محتاجٌ إلى مالك، تعالى الله الغني الحميد، وإنما تشريفًا لبذلك، وضمانًا لعودته، واستنهاضًا لكرامتك. لقد كان يستطيع أن يقول: أعطوا الفقراء من مالي الذي استخلفتكم فيه، وهو حق، لكنه يخاطب فيك موضع الحب والثقة، فيجعل المحتاج كأنما مدَّ الله إليك حاجته امتحانًا، ويجعل ما تعطيه مضمون الرجوع عند أكرم مَن يفي.

والقرض بطبيعته مالٌ يخرج على أملٍ أن يعود بمثله، لكن القرض مع الله يعود مضاعفًا: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾. أنت تعطي شيئًا محدودًا من مالٍ أعطاك الله أصله، ثم يعيده إليك ثوابًا لا تحده مقاييس الدنيا. أي تجارةٍ أكرم من هذه؟ رأس المال منه، والتوفيق للعطاء منه، والقابل الذي استلم صدقتك من خلقه، ثم الربح المضاعف عنده، ومع ذلك ينسب الفعل إليك ويثني عليك. إن الإنسان ليتوارى حياءً أمام هذا الكرم؛ فما الذي لنا حقًّا حتى نقدمه؟ وما الطاعة إلا نعمةٌ أخرى تحتاج إلى شكر؟

غير أن الآية لا تقول أي قرض، بل ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾. وحُسن القرض في طيب مصدره، وإخلاص وجهته، وسلامته من المن والأذى، ووصوله إلى موضعه، وخروجه من مالٍ يحبه صاحبه لا من رديءٍ يستحي أن يحتفظ به. القرض الحسن لا يكسر قلب الفقير وهو يملأ يده، ولا يصنع من العطاء سلسلةً يجر بها المعطي كرامة المحتاج خلفه. ورب كلمةٍ مهينة أحرقت صدقةً كبيرة، ورب يدٍ خفية وضعت القليل في موضعه فرفعه الله.

والإنفاق الحسن يحتاج إلى فقه القلوب؛ فقد يكون المحتاج أشد حاجةً إلى أن يُصان من حاجته أمام الناس من حاجته إلى المال نفسه. أن تعطيه في خفاء، وأن تترك له مساحةً يشعر فيها أنه أخوك لا تابعك، وأن تدرك أن الفقر ظرفٌ مر به لا تعريفٌ كامل له؛ كل هذا من حسن القرض. والمؤمن لا ينظر إلى المحتاج من علٍ، فهو يعلم أن توزيع الأرزاق امتحانٌ للطرفين، وأن الله قادرٌ على أن يبدل المواقع في لحظة؛ فالغني ممتحنٌ في شكره، والفقير ممتحنٌ في صبره، وقد يكون الصابر عند الله أرفع من الذي يمد إليه المال.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾. ولم يكتفِ بالمضاعفة، بل أضاف إليها الأجر الكريم؛ أجرٌ كريمٌ في ذاته، كريمٌ في طريق تقديمه، كريمٌ لأنه يأتي من الكريم سبحانه. وقد يعطي السيدُ أجيرَه أجره فينصرف، أما الله فيعطي عبده ويكرمه ويرضى عنه، ويجعل العطاء مقرونًا بالقرب. فليست الجنة مخزن مكافآتٍ مادية فقط، بل دار كرامة؛ أعظم ما فيها أن يرضى الله عن عبده، وأن ينكشف له أنه ما خسر شيئًا يوم فتح يده، بل كان يحرر ماله من الفناء ويحرر قلبه من العبودية.

وهكذا تهدم هذه الآيات الوهم الذي يجعل الإنسان يقول عن ماله: «هذا لي». تقول له: أنت مستخلف، والملك لله، والميراث لله، وما تنفقه عائدٌ إليك مضاعفًا، وما تمسكه سيخرج من يدك ولو كرهت. والفرق بين المنفق والبخيل أن كليهما سيترك ماله، لكن المنفق يختار كيف يتركه وإلى أين يرسله، أما البخيل فيتركه قسرًا ثم يذهب إلى الله وحيدًا. الأول حوَّل الفاني إلى باقٍ، والآخر أمسك بالفاني حتى فاته الباقي.

حين يمشي الإيمان نورًا بين يدي صاحبه

تأملات في الآيات من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة

يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

بعد أن تحدَّثت السورة عن الإيمان والإنفاق والقرض الحسن، تفتح فجأةً نافذةً على اليوم الذي تتحول فيه هذه المعاني الخفية إلى حقائق مرئية. الإيمان الذي كان مستورًا في الصدور يصير نورًا تسعى به الأرواح، والإنفاق الذي خرج من اليد في صمتٍ يعود ضياءً يهدي صاحبه في مواضع الفزع، واليقين الذي استهزأ به الغافلون يصبح يومئذٍ أعظم قوةٍ يحتاج إليها الإنسان. كأن الله يريد أن يقول لنا: لا تظنوا أن أعمال القلوب تذهب لأنها لا تُرى؛ إن لها يومًا تتجسد فيه، ولا تحسبوا أن الطاعة مجرد ذكرى تنقضي مع وقتها، فإن ما تفعلونه اليوم يبني الصورة التي ستقومون بها غدًا.

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يستعير كثيرًا من الأشياء: يستعير عبارةً لا يؤمن بها، وهيئةً لا تعبر عن باطنه، وانتماءً يمنحه الأمان، وصورةً من الصلاح تخدع أعين الناس. لكنه في الآخرة لا يستطيع أن يستعير النور؛ لأن النور هناك ليس زينةً خارجية، وإنما هو حقيقة ما صار إليه القلب بعد عمرٍ كامل من الإيمان والمجاهدة. هناك تسقط المسافة بين الباطن والظاهر، فيبدو الإنسان كما كان في حقيقته، لا كما نجح في أن يبدو أمام الآخرين.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. يبدأ المشهد بالرؤية، كأن النبي ﷺ يُدعَى إلى مشاهدة أولئك الذين آمنوا به واحتملوا مشقة الطريق، وقد عبروا زمن الابتلاء إلى زمن التكريم. وذِكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين تكريمٌ صريح للنفس المؤمنة أيًّا كان جنسها؛ فلكل روحٍ نورها الذي صنعته بإيمانها، ولكل قلبٍ سعيه الذي لا يضيع في ميزان الله. قد تحجب مجتمعات الأرض أعمال نساءٍ مؤمنات، وقد تمر تضحياتهن في صمتٍ لا تسجله كتب التاريخ، لكن مشهد الآخرة يعيد كل إنسانٍ إلى عمله، فلا يضيع تعبٌ لأن صاحبه لم يكن مشهورًا، ولا يخفت نورٌ لأن أهل الدنيا لم يلتفتوا إليه.

﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾. لم يقل: يظهر نورهم فحسب، بل قال: ﴿يَسْعَى﴾؛ والنور الساعي نورٌ حيٌّ متحرك، يتقدمهم في الطريق، ويرافقهم، ويبدد أمامهم وحشة الموقف. إنه ليس ضوءًا للزينة، بل نور هدايةٍ ونجاة، بقدر ما كان في قلوبهم من صدق، وفي أعمالهم من إخلاص، وفي خطاهم من استقامة. الذين ساروا إلى الله في الدنيا على نور الوحي، يسير نورهم أمامهم في الآخرة؛ والذين اختاروا أن يتخبطوا في ظلمات الهوى هناك، يُتركون لما اختاروه هنا.

ما أعمق الصلة بين النور والعمل! لقد كان المؤمن في الدنيا يقرأ آيةً فيزداد بها بصيرة، ويكتم غيظًا ابتغاء وجه الله، ويعطي صدقةً لا تعرف بها يده الأخرى، ويقوم في ظلمة الليل والناس نيام، ويترك شهوةً قادرةً عليه لأن الله يراه؛ وربما بدت هذه الأعمال صغيرةً منفصلة، لكنها كانت جميعًا قطراتٍ تتجمع في نهر النور الذي سيسعى بين يديه. لم تكن الطاعة تكليفًا عابرًا، بل كانت صناعةً بطيئةً للمصباح الذي سيحتاج إليه حين تنطفئ أنوار العالم.

والنور بين أيديهم يضيء جهة المستقبل، وعن أيمانهم كرامةً وأمنًا ورفقة. كأن ما قدَّموه بأيمانهم من خيرٍ يعود الآن نورًا عن أيمانهم؛ فاليد التي امتدت بالصدقة تجد أثرها ضياءً، واليد التي أمسكت عن الظلم تستنير بما تركت، واليد التي كتبت حقًّا أو رفعت ضعيفًا أو مسحت دمعةً لا تُنسى حركتها عند الله. إن الجوارح تكتب مصيرها بأعمالها؛ فما من عضوٍ فيك إلا وهو يصنع لنفسه شهادةً أو حجة، ونورًا أو ظلمة.

والعجيب أن النور منسوبٌ إليهم: ﴿نُورُهُمْ﴾، مع أن الله هو الذي منَّ به وخلقه وأثابهم به. وهذه من كرامة الله لعباده؛ يعطيهم الهداية، ويوفقهم للطاعة، ثم ينسب إليهم ثمرة فضله تشريفًا لهم. ولكن نسبته إليهم تعني أيضًا أنه نورٌ شخصي لا يُورث بالنسب ولا يُستعار من الجماعة. لن يكفي أن يكون أبوك صالحًا، أو أن تنتمي إلى أمةٍ مؤمنة، أو أن تعيش بين أهل القرآن؛ فلا

بد أن يكون لك من النور نصيبٌ صنعته علاقتك أنت بالله. الجماعة قد تدلك على الطريق، والعالم قد يعلمك، والصالح قد يأخذ بيدك، لكن السير لا يؤديه أحدٌ بالنيابة عنك.

وقد يظن الإنسان أن النور يصنعه كثرة الكلام عن الله، مع أن اللسان قد يفيض والباطن مظلم. إنما النور أثر الصدق؛ قد يكون صاحبه قليل العبارة، لكنه إذا عرف حقًّا انقاد له، وإذا رأى عيبًا في نفسه حاربه، وإذا خلا لم يخن الصورة التي يظهر بها أمام الناس. ومصدر النور هو الوحي، لكن القلب لا ينتفع به حتى يفتح له نوافذه. فمن حمل القرآن حفظًا ثم أغلق عنه سلوكه، حمل المصباح دون أن يشعله؛ ومن سمح لآيةٍ واحدة أن تعيد ترتيب حياته، فقد أخذ منها نورًا يمشي به.

البشرى التي تنهي أعمار الخوف

وفي ذروة المشهد يأتي النداء: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. بعد أعمارٍ عاشها المؤمنون بين الخوف والرجاء، وبعد قلوبٍ كانت تسأل: هل قُبل العمل؟ وهل غُفر الذنب؟ وهل نثبت عند اللقاء؟ تأتي البشرى لتغلق باب الخوف إلى الأبد. ليس بعد هذا النداء ترقبٌ لزوال النعمة، ولا خشيةٌ من طرد، ولا قلقٌ من موتٍ يقطع الوصال. إن أشد ما ينقص لذات الدنيا أنها مهددة؛ كل فرحٍ فيها يحمل في داخله احتمال انتهائه، وكل اجتماعٍ يمر عليه ظل الفراق، وكل صحةٍ يجاورها المرض، وكل شبابٍ يرصده الهرم. أما الجنة فنعيمٌ تحرر من الخوف؛ لأن كلمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ تنزع من اللذة سمَّ الفناء.

والأنهار التي تجري من تحت الجنات ليست مجرد صورةٍ للترف، بل صورة الحياة الدائمة والتجدد الذي لا ينقطع. الدنيا مهما اخضرت يزحف إليها الذبول، أما هناك فلا خريف بعد الربيع، ولا جفاف بعد الجريان، ولا يختلط الماء بالخوف من نفاده. وكل ما وجده الإنسان في الدنيا من جمالٍ إنما هو لمعةٌ بعيدة من جمالٍ لم تره عين، ورحمةٌ صغيرة تشير إلى دار الرحمة الكبرى.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. هنا يعيد القرآن تعريف الفوز؛ لأن الأرض صنعت له تعريفاتٍ كثيرةً مضللة. قد تسمي الفوز أن يسبق الإنسان غيره إلى مال، أو أن يتسع اسمه في أفواه الناس، أو أن يملك سلطةً يخضع بها الرقاب، لكن كل ذلك ينهار عند الموت، والفوز الذي ينتهي عند حافة القبر ليس فوزًا عظيمًا. الفوز العظيم أن تنجو حين تتعطل أسباب النجاة، وأن يكون لك نورٌ حين تنطفئ الأضواء، وأن تسمع البشرى حين يمتلئ الموقف بالرعب، وأن تدخل دارًا لا يُخرجك منها موت ولا خطأ ولا ظلم.

ولا يعني ذلك أن يحتقر المؤمن نجاحات الدنيا أو يعطل أسبابها، بل أن يعيدها إلى حجمها؛ يعمل ويبدع ويبني، لكنه لا يمنح النجاح المؤقت اسم الغاية الأخيرة. قد ينجح المرء في السوق

ويخسر نفسه، وقد ينتصر في خصومةٍ ويهزم عدله، وقد يصعد في أعين الناس ويهبط في ميزان الله. فالفوز الحقيقي ليس أن تصل فقط، بل أن تسأل: إلى أين وصلت؟ وبماذا دفعت ثمن الوصول؟ وما الذي بقي من قلبك بعد أن حققت ما أردت؟

الذين أرادوا أن يستعيروا النور متأخرين

وعلى مقربةٍ من موكب المؤمنين المضيء، يرتفع صوتٌ مذعور من عمق الظلمة: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾. كان المنافقون في الدنيا قريبين من المؤمنين في المكان، يلتقون بهم، ويسمعون القرآن، ويؤدون معهم بعض الشعائر في ظاهر الأمر، لكن القرب المكاني لم يصنع لهم نورًا؛ لأن النور لا يتولد من مجاورة الأجساد، بل من استجابة القلوب. كانوا يرون المصباح كل يوم، لكنهم لم يسمحوا له أن يضيء دواخلهم، فلما جاء اليوم الذي لا تنفع فيه إلا أنوار الباطن وجدوا أنفسهم في عتمةٍ صنعوها بأيديهم.

﴿انْظُرُونَا﴾ تحتمل معنى انتظرونا وأمهلونا؛ لقد كان المؤمنون يتقدمون بنورهم، والمنافقون يتعثرون خلفهم، يستغيثون بمن عاشوا معهم طويلًا: لا تسبقونا، دعونا نأخذ من نوركم. يا لقسوة الندم حين يحتاج المرء إلى الشيء الذي قضى عمره يسخر من أهله! كان النور في الدنيا معروضًا بلا ثمن، وكانت الآيات تنزل، وأبواب التوبة مفتوحة، وكان يستطيع أن يأخذ منه ما يشاء، لكنه أجَّل الصدق، ورضي بصورة الإيمان دون حقيقته. والآن يريد قبسًا في وقتٍ أُغلقت فيه أبواب العمل.

إن أخطر ما في النفاق أنه قد يمنح صاحبه اطمئنانًا زائفًا؛ يرى نفسه في صف المؤمنين، ويسمع لغتهم، ويتقن ملامحهم، فيظن أن المشهد الخارجي سيحمله يوم القيامة. لكنه لم يكن يبني نورًا في داخله، بل كان يبني قناعًا على وجهه، والأقنعة لا تشع. قد ينجح الإنسان في خداع جماعةٍ كاملة، وقد يحفظ لنفسه مكانةً دينيةً رفيعة، لكن يوم كشف السرائر لا يسأل عن المكان الذي وقف فيه جسده، بل عن الحقيقة التي حملها قلبه.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾. تحمل العبارة توبيخًا مريرًا: ارجعوا إلى الموضع الذي كان يمكن أن يُصنع فيه النور، إلى الدنيا؛ لكنها رجعةٌ مستحيلة. كأنهم يقال لهم: النور لا يُنتَج هنا، هذا يوم ظهور الحصاد لا يوم غرس البذور، ويوم توزيع النتائج لا يوم تجديد الفرص. التمسوا نورًا حيث كان القرآن يُتلى، وحيث كانت الركعة ممكنة، والصدقة ممكنة، والتوبة ممكنة، والدمعة قادرةً أن تمحو ما قبلها. أما الآن فقد صارت الدنيا وراءكم، كما كنتم تجعلون الآخرة وراء ظهوركم.

وما أشد هذه الكلمة على القلب الحي! إنها تقول لنا ونحن ما نزال في دار العمل: النور الذي ستحتاج إليه هناك يُصنع هنا. لا تؤجل صلاةً تستطيعها، ولا توبةً يناديك إليها الندم، ولا حقًّا

يمكنك أن ترده، ولا قلبًا تستطيع أن تجبره. إن التأجيل ليس فراغًا محايدًا؛ إنه يستهلك العمر الذي خُلق فيه النور. وكلما قال الإنسان: غدًا، قطع من فتيل مصباحه جزءًا لا يدري هل يُمهل لتعويضه.

السور الذي يكشف المسافة الخفية

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾. في لحظة واحدة يظهر الحاجز الذي كان خفيًّا في الدنيا. لقد عاش المؤمن والمنافق متجاورين، وربما صلَّيا في صفٍّ واحد، وتكلما باللغة نفسها، لكن بين قلبيهما كان سورٌ لا تراه العين: هذا يريد الله، وذاك يريد صورته عند الناس؛ هذا يخاف أن يخون ميثاقه، وذاك يخاف أن تُكشف خيانته؛ هذا إذا أذنب انكسر، وذاك إذا أذنب بحث عن حجة. وفي الآخرة يتجسد ذلك الحاجز المعنوي سورًا يفصل المصيرين.

للسور باب، وباطنه الذي يلي المؤمنين رحمة، وظاهره الذي يلي المنافقين عذاب. وقد كان الإيمان نفسه في الدنيا بابًا؛ من دخله بصدقٍ وصل إلى الرحمة، ومن وقف خارجه مكتفيًا بتقليد الداخلين بقي في الظاهر. إن الباب لا ينفع من يصفه دون أن يعبره، كما لا ينفع الوحي من يمدحه دون أن يخضع له. وما أكثر الذين يقفون عند عتبة الحق: تعجبهم بلاغته، ويوقرون رموزه، ويتحدثون عن عظمته، لكنهم لا يدخلون؛ لأن الدخول يطلب من النفس أن تتغير، وهي تريد نور الدين دون أن تدفع كلفة التخلي عن ظلامها.

والرحمة التي في باطن السور ليست ثمرة استحقاقٍ مجرد، بل فضل الله الذي قاد المؤمنين، وثبتهم، وغفر تقصيرهم. أما العذاب فعدلٌ بعد قيام الحجة وإضاعة الفرصة. وبين الرحمة والعذاب بابٌ كان مفتوحًا في الدنيا بالتوبة؛ فكل عاصٍ كان يستطيع أن يعبر، وكل منافقٍ كان قادرًا أن يصدق، وكل قلبٍ قاسٍ كان يمكنه أن يلين. لكن الأبواب الزمنية لا تبقى مفتوحةً إلى الأبد، والحكمة أن تدخل قبل أن تتحول الإمكانية إلى ذكرى.

كنا معكم... ولكن أين كانت قلوبكم؟

يرتفع النداء من وراء السور: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾. إنها حجة الصحبة الظاهرة: ألم نحضر مجالسكم؟ ألم نقف في صفوفكم؟ ألم نحمل أسماءكم ونستخدم ألفاظكم ونشارك في مشاهدكم؟ ويأتي الجواب من المؤمنين صريحًا: ﴿قَالُوا بَلَى﴾؛ نعم، كنتم معنا بأجسادكم، ولكن أجسادًا اجتمعت وقلوبًا افترقت. إن المكان المقدس لا يقدس قلبًا يرفض الهداية، والصحبة الصالحة لا تنفع من جعلها غطاءً على فساده، والقرب من أهل الحق ليس بديلًا عن أن تكون من أهله.

ثم يأتي التشخيص القرآني لرحلة السقوط في خمس حلقات متتابعة، لا بوصفها تعدادًا باردًا، بل سيرةً داخلية للروح حين تهدم نفسها: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

بدأ الأمر من الداخل: ﴿فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾. لم تكونوا ضحايا أبرياء لظرف خارجي فقط، بل عرَّضتم أنفسكم للفتنة، وفتحتم لها الأبواب، وأطعتم الشهوة كلما نادت، ثم اعتدتم الانقياد حتى ضعفت إرادتكم. والنفس قد تكون أرض المعركة وضحية الهزيمة في آنٍ واحد؛ يظلم الإنسان نفسه حين يقدم لها اللذة العاجلة ويمنع عنها النجاة، ويحسب أنه يكرمها بإعطائها كل ما تريد، بينما يقودها برفقٍ مخادع إلى هلاكها. ليست الرحمة بالنفس أن تجيب كل رغباتها، بل أن تمنعها مما يشوهها، كما يمنع الأب الرحيم ولده ما يضره وإن بكى.

ثم ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾؛ انتظرتم بالمؤمنين الدوائر، ووقفتم على الحافة تراقبون اتجاه القوة، لا يحكمكم يقينٌ بالحق بل حساب المصلحة. إن المنافق لا يمنح قلبه لقضية، بل يترك لنفسه بابًا خلفيًّا في كل موقف؛ فإن انتصر الحق ادعى أنه كان معه، وإن اشتدت عليه المحنة انسحب وقال: ألم نحذركم؟ والتربص يفسد الروح لأنه يحولها من صاحبة موقفٍ إلى تاجرة احتمالات، فلا تسأل: ما الحق؟ بل تسأل: من الغالب؟ ولا تبحث: أين رضا الله؟ بل: أين سلامتي ومكاسبي؟

ثم ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾؛ دخل الشك إلى القلب فلم تعالجوه بطلب الهدى، بل جعلتموه مأوىً يبرر التراجع. والشك العارض قد يمر بالمؤمن فيدفعه إلى العلم والدعاء، لكنه إذا رُعِي بالهوى تحول إلى ارتيابٍ يأكل اليقين. كان بإمكانهم أن يسألوا بصدق، لكنهم أرادوا من السؤال حجةً على ألا يستجيبوا؛ فليست كل الأسئلة طلبًا للحقيقة، فقد يصنع الإنسان سؤالًا طويلًا ليختبئ وراءه من جوابٍ يعرفه في أعماقه.

ثم ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾. لم يقولوا: لن نتوب أبدًا، بل قالوا في سرائرهم: سنتوب لاحقًا، ولم يرفضوا الآخرة صراحةً، لكنهم عاشوا كأن الطريق إليها طويلٌ بلا نهاية. والأمنية أخطر من الإنكار أحيانًا؛ لأن المنكر قد توقظه الصدمة، أما المتمني فيخدِّر نفسه بوعدٍ كاذب بالمستقبل. يقول: سيأتي يومٌ أصلح فيه قلبي، وحين تستقر ظروفي سأقترب من الله، وبعد أن أشبع من هذه اللذة سأهجرها. لكنه لا ينتبه إلى أن كل استجابةٍ للهوى تقوِّيه، وأن القلب الذي يرفض النور اليوم لا يضمن أن يكون غدًا أقدر على استقباله.

والأماني ليست هي الرجاء؛ فالرجاء يقترن بالعمل، أما الأمنية فتطلب الثمرة دون بذرة. الراجي لرحمة الله يتوب ويجاهد ويحسن الظن بربه، أما المغرور فيقيم على خطئه ثم يستخدم الرحمة ستارًا يحمي به غفلته. يقول: إن الله غفور، وينسى أن الغفور هو الذي دعاه إلى المغفرة وأمره أن يمشي إليها. ليس حسن الظن بالله أن تعصيه وأنت مطمئن إلى أنك لن تُسأل، بل

أن تطيعه وأنت واثقٌ بأنه لن يضيع سعيك، وأن تتوب وأنت موقنٌ بأن باب رحمته أوسع من ذنبك.

﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾؛ وبين البداية وهذه النهاية أعمارٌ كاملة بددها حرف «سوف». جاء الموت الذي كانوا يعدونه بعيدًا، وجاء اليوم الذي تحدثوا عنه كأنه احتمال، وسقطت الأماني حين اصطدمت بالحقيقة. والموت لا يحتاج إلى أن يستأذن مشروع الإنسان؛ قد يأتيه وهو يخطط لسنوات، ويجمع لمرحلة، ويؤجل المصالحة والتوبة والبر. وما أقسى أن تتحول كلمة «سأفعل» في لحظة الموت إلى «ليتني فعلت».

﴿وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾؛ والغرور هو الشيطان وكل ما يزين الباطل ويمنح الإنسان أمنًا كاذبًا. لم يقل لهم: لا وجود لله، فقد لا يستجيبون له، وإنما قال: الله رحيم فلا تتعجلوا التوبة، والله غني عن أعمالكم فلا تشقوا على أنفسكم، وأنتم خيرٌ من كثيرين فلا تدققوا في عيوبكم. إنه يستخدم بعض الحق ليصنع به باطلًا؛ يأخذ صفة الرحمة ويفصلها عن العدل والحكمة والتكليف، ويحوّل حسن الظن إلى جرأة، والرجاء إلى إهمال. وما أخبث الغرور حين يأتي مرتديًا ثوب المعرفة بالله!

اليوم الذي لا تُشترى فيه النجاة

ثم يصدر الحكم الأخير: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. في الدنيا اعتاد الإنسان أن يفتدي نفسه بالمال، وأن يجد لكل مأزقٍ ثمنًا، وأن يتصور أن ما جمعه يمنحه قوةً تتجاوز الحدود. أما يوم القيامة فتسقط قيمة المال الذي عبدوه؛ لو امتلك أحدهم ملء الأرض ذهبًا ما استطاع أن يشتري به لحظة أمان. لقد كان المال في الدنيا قادرًا على أن يصنع نورًا لو أُخرج في سبيل الله، فلما أُمسك به حتى فات زمن الإنفاق، لم يعد يصلح فدية. عجيبٌ أمر المال: يكون في دار العمل باب نجاة، ثم يصبح في دار الجزاء بلا قيمة؛ وتكون اللقمة الصغيرة في يد جائعٍ أثقل في الميزان من كنوزٍ أبقاها أصحابها خلفهم.

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾. كانوا في الدنيا يطلبون المأوى في القوة والمال والجماعات والصور، فلما انهارت الملاجئ صار مأواهم ما كانوا يهربون منه. وقوله: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ يحمل تهكمًا مريرًا؛ فهي أولى بكم، ومصيركم الذي قادت إليه اختياراتكم، بعد أن أعرضتم عن ولاية الله ووالَيتم أهواءكم. إن الإنسان لا يعيش بلا ولاية؛ إن لم يتولَّه الحق تولاه الهوى، وإن لم يعبِّد قلبه لله عبَّده لشيءٍ من الأشياء، وإن لم يمشِ خلف النور قاده الظلام إلى مستقره.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ بئس نهاية الطريق الذي بدأ بخطواتٍ ظنها أصحابها صغيرة: مجاملةٍ على حساب الحق، وتأجيلٍ للتوبة، وشكٍّ تُرك بلا علاج، وأمنيةٍ حلت محل العمل، وثقةٍ كاذبةٍ بأن العمر ما يزال طويلًا. لم يبدأ المصير بسقوطٍ مدوٍّ، بل بتنازلاتٍ دقيقة راكمت ظلامها حتى انطفأ القلب. وهذا ما يجعل الآيات مرآةً لنا لا حكايةً عن غيرنا؛ فالنفاق درجاتٌ وخصال، وعلى المؤمن أن يفتش في نفسه عن كل فجوةٍ بين ظاهره وباطنه، وعن كل عبادةٍ يريد بها أعين الناس، وعن كل حقٍّ يؤجله انتظارًا لاتجاه الغلبة.

إن الفرق بين المؤمن والمنافق في هذا المشهد لم يكن فرق الاسم الذي حمله كلٌّ منهما في الدنيا، بل فرق النور الذي صنعه الصدق في أحدهما ومنعه الخداع عن الآخر. كانا متجاورين على الأرض، ثم كشف الأبد عن المسافة الهائلة بينهما. ولهذا لا يكفي أن نسأل: مع مَن نقف بأجسادنا؟ بل ينبغي أن نسأل: أين تقف قلوبنا حين تُغلق الأبواب، وتغيب العيون، وتتعارض المصلحة مع الحقيقة؟ ففي تلك اللحظات الخفية تُصنع الأنوار التي ستسعى يومًا بين الأيدي، أو تُنسج الظلمات التي لن يستطيع صاحبها أن يخرج منها.

حين يطول الأمد فيتحجَّر موضع النور

تأملات في الآيتين السادسة عشرة والسابعة عشرة

يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

بعد مشهد النور والسور والندم، لا تترك السورة المؤمن واقفًا يتأمل مصير المنافقين كأن الأمر لا يعنيه، ولا تسمح له أن يكتفي بالشعور بالأمان لأنه يحمل اسم الإيمان؛ بل تدير المرآة فجأةً نحوه، وتوجّه إلى قلبه واحدًا من أرقِّ الأسئلة القرآنية وأشدها إيلامًا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ ألم يأت الوقت بعد؟ كم بقي من العمر حتى يبدأ القلب رحلته الحقيقية؟ وكم آيةً يحتاج الإنسان إلى أن يسمع قبل أن ينكسر جدار الغفلة؟ وكم جنازةً ينبغي أن يشيع، وكم وجهًا يحبُّه ينبغي أن يغيب، وكم نعمةً ينبغي أن تتكلم حوله، وكم محنةً ينبغي أن تهزه، حتى يدرك أن الوقت ليس مخزنًا لا ينفد، وأن اللحظة التي يؤجل إليها عودته قد لا تأتي؟

إن السؤال موجَّهٌ إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وفي هذا كشفٌ لحقيقة دقيقة: أن الإيمان قد يوجد في أصله، ثم يتأخر أثره في القلب، وأن الإنسان قد يصدق بالله ويؤدي بعض شعائر الدين، ومع ذلك يبقى بين معرفته وخشوعه مسافة. ليس كل مَن آمن قد اكتمل، ولا كل من سار في الطريق بلغ مقام الحضور. قد يحمل القلب أصل الحياة، لكنه يكون مثقلًا بالغبار، وقد يعرف الحق، لكن معرفته لم تهبط بعد من الرأس إلى موضع الوجل والمحبة. ولهذا ينادي القرآن المؤمنين إلى أن يصير إيمانهم أعمق من الاسم، وأن ينتقلوا من الاعتراف بالحقيقة إلى التأثر بها، ومن صحبة الألفاظ إلى صحوة الروح.

ألم يأت وقت القلب؟

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، كلمةٌ يختلط فيها العتاب بالحنان، والاستعجال بالرحمة. ليست صفعةً تطرد المتأخر، بل يدٌ توقظه قبل أن يفوته الطريق. كأن الله يقول لعبده: لقد طال انتظار قلبك، أما آن له أن يعود؟ لقد أعطيتك من العمر ما سمعت فيه ونظرت وعرفت، فإلى متى تبقى الآيات عند بابك ولا تدخل؟ إن السؤال لا يحدد للإنسان موعدًا في المستقبل، بل ينتزع منه حيلة المستقبل كلها؛ فالوقت الذي آن هو الآن، واللحظة المناسبة للخشوع ليست حين تهدأ الدنيا، أو تستقيم الظروف، أو يفرغ القلب من مشاغله، لأن الدنيا لن تعطيك فراغًا كاملًا، والنفس إن لم تُؤخذ إلى الله وسط الزحام صنعت من كل فراغٍ زحامًا جديدًا.

نقول كثيرًا: حين تنتهي هذه المشكلة سأقبل على الله، وحين يتحسن الرزق سأطمئن، وحين أكبر سأترك ما يبعدني، وحين أفرغ سأقرأ وأتدبر. لكن المشكلات تتناسل، والرزق يفتح أبوابًا أخرى من القلق، والعمر لا يكبر ببطءٍ كما نتخيل بل يتسرب، والفراغ الذي ننتظره قد يكون الاسم الآخر للقبر. تأتي ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ فتوقف قطار التأجيل، وتضع الإنسان في مواجهة اللحظة التي يملكها فعلًا. ليس لك من العمر إلا هذه الساعة؛ الماضي أصبح شهادةً عليك أو لك، والمستقبل وعدٌ لم توقعه لك الحياة، أما الآن فهو الباب المفتوح.

وفي السؤال معنى الحب؛ فالذي لا يريدك لا يعاتب تأخرك، والذي أغلق بابه لا يسألك لماذا لم تدخل. عتاب الله للمؤمنين دليل أنه يريد لقلوبهم مقامًا أعلى، وأنه لم يرض لهم أن يبقوا عند قشرة الإيمان. إنه يدعوهم إلى الخشوع لا لأنه يحتاج انكسارهم، بل لأنهم هم الذين يحتاجون أن يتحرروا من قسوتهم؛ فالإنسان حين لا يخشع لله يخشع سرًّا لأشياء كثيرة: يخشع لنظرة الناس، ولتهديد الفقر، ولسلطان الشهوة، ولصورةٍ يريد الحفاظ عليها. وما الخشوع لله إلا تحريرٌ للقلب من انحناءاته الخفية لغيره.

الخشوع: أن يسقط الحجاب بين المعرفة والقلب

﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾. الخشوع ليس مجرد انفعالٍ عابر، ولا دمعةً تهبط ثم يبقى مسار الحياة كما كان، وإن كانت الدمعة الصادقة زهرةً من أزهاره. الخشوع في جوهره أن يلين القلب للحق، وأن تهبط عظمة الله عليه فتسكن ضوضاؤه، وأن تزول مقاومته الخفية لأمر مولاه. القلب الخاشع لا يعني قلبًا حزينًا دائمًا، بل قلبًا يعرف قدر ربه وقدر نفسه؛ فإذا سمع أمرًا لم يقابله بالتعالي، وإذا أذنب لم يجادل عن خطئه، وإذا أُنعِم عليه لم ينسب الفضل إلى ذاته، وإذا ابتُلي لم يتحول ألمه إلى اتهامٍ لحكمة الله.

ونسب الخشوع إلى القلوب لأن الجوارح لا تخشع حقًّا إلا إذا سبقها القلب. قد يخني الجسد والقلب قائمٌ بكبريائه، وقد يسكن الصوت وفي الداخل صخبٌ من العجب، وقد تدمع العين

لأن المقام مؤثر لا لأن الروح عادت إلى الله. ليس المطلوب هيئة الخشوع وحدها، وإنما حقيقته، أن يتواضع أعمق موضعٍ فيك للحق، فلا تعود الطاعة عبئًا خارجيًّا، بل استجابةً لمَن أحببت وعظَّمت. وحين يخشع القلب تمتد الرقة إلى الجوارح، لا تكلُّفًا ولا تمثيلًا، بل لأن الجسد يصير ترجمةً لما امتلأت به الروح.

والقلب في اللغة ليس مجرد عضوٍ نابض، بل موضع التقلب والإدراك والإرادة والنية. وقد سُمّي قلبًا لشدة تقلبه؛ يكون مقبلًا في ساعة، ثم تدهمه الغفلة فينصرف، يرق لمشهدٍ ثم يعود إلى عاداته، يذوق حلاوة القرب ثم تسترده الدنيا. ولذلك لا يكفي أن يخشع مرة؛ فهو يحتاج إلى ما يجدد خشوعه، كما تحتاج الأرض إلى مطرٍ متكرر. إن لحظة الإيمان الكبرى لا تعفي صاحبها من الرعاية اليومية، والقلب الذي أضاء بالأمس قد يخبو اليوم إن لم يصله مدد الذكر.

﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ فذكر الله هو القوة التي تعيد الأشياء إلى أحجامها الحقيقية. حين يُذكر الله يصغر ما كبر في العين من الدنيا، ويضعف ما بدا مطلقًا من سلطان الخلق، ويستيقظ معنى الآخرة، ويتذكر الإنسان أنه عبدٌ لا إله، وعابرٌ لا خالد. ليس الذكر تكرارًا خاليًا من الوعي، بل حضور المذكور في القلب بما يليق بجلاله؛ أن تقول «الله أكبر» فتتراجع في داخلك الأشياء التي منحتها مقام الكِبَر، وأن تقول «الحمد لله» فترى النعم متصلةً بمصدرها، وأن تستغفر فتسقط حجة النفس ويظهر فقرها إلى العفو.

وقد يكثر اللسان من الذكر بينما يظل القلب بعيدًا، لكن هذا لا يعني ترك الذكر، بل يعني المجاهدة حتى يلتقي اللسان والقلب. اللسان يطرق الباب، وقد يفتح الله له بعد طول طرق، والكلمة التي تقولها اليوم بفتور قد يجيء يومٌ تنفجر فيه بمعناها داخل روحك. فلا تحتقر تكرار العودة، ولا تقل: لم أخشع فلن أذكر؛ فإن انتظار الخشوع قبل الذكر يشبه انتظار الشبع قبل الطعام. اذكر حتى يلين، واقرأ حتى ينفتح، وقف على الباب حتى يؤذن لك؛ فالأبواب العظيمة لا تُهجر لأن الطارق لم يسمع الجواب من أول مرة.

الحق الذي نزل ليصعد بالقلب

ثم يضيف سبحانه: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾. والمراد ما أنزله الله من الوحي والقرآن؛ فقد نزل الحق من العلو ليخرج الإنسان من سفل الهوى. يا لعظمة هذا المعنى: كلامٌ من الله يصل إلى الأرض، ثم يمر على قلب الإنسان، وقد لا يتحرك! الجبال لو نزل عليها القرآن لرأيتها خاشعةً متصدعةً من خشية الله، أما القلب الذي أَلِف التلاوة فقد تمر به الآيات كما يمر الماء على حجرٍ مصقول، يلمس سطحه ولا ينفذ إليه.

وليست المشكلة في الحق النازل، فهو بيّنٌ يحمل نوره في ذاته، وإنما في القلب المستقبل: هل دخل القرآن عليه بوصفه خطابًا من الله إليه، أم بوصفه نصًّا اعتاد صوته؟ الألفة قد تكون

نعمةً إذا قرَّبت الإنسان من القرآن، لكنها قد تصبح حجابًا إذا أطفأت دهشته. يسمع المؤمن الآية التي غيرت تاريخ أمم، فلا يجد فيها إلا لحنًا مألوفًا، ويتلو وعد الجنة ووعيد النار كأنه يقرأ خبرًا عن عالمٍ لا يعنيه. إن قسوة القلب ليست دائمًا رفض القرآن، بل قد تكون القدرة على البقاء كما أنت بعد سماعه.

والحق لا يطلب من القلب أن يعجب به فقط، بل أن يخضع له. قد يستمتع الإنسان ببلاغة القرآن، ويستخرج لطائفه، ويتحدث عن نظمه، ثم يرفض حكمه حين يمس شهوةً مستقرةً فيه. وهذا من أدق الحجب؛ أن يتحول الوحي عند المرء إلى موضوعٍ للمعرفة دون أن يبقى سلطانًا على الحياة. المعرفة بالقرآن شرف، والتأمل في بيانه عبادة، لكن الغاية أن يقود البيان إلى الإذعان، وأن تتحول الدهشة الجمالية إلى طاعةٍ أخلاقية، وأن يصبح النص نورًا يمشي في العلاقات والمواقف والاختيارات.

وما نزل من الحق لا يجامل الأوهام التي يحبها الإنسان عن نفسه؛ إنه يكشفه أمام ذاته، ويخبره أن الصلاح ليس ما يدعيه بل ما يصدقه العمل، وأن النية قد تفسد أجمل الصور، وأن الهوى قد يرتدي ثياب العقل والحكمة. ولذلك يهرب بعض الناس من التدبر العميق؛ لأنهم يخشون أن تقودهم الآية إلى الغرفة التي أغلقوها في أنفسهم. يريدون قرآنًا يطمئنهم دائمًا دون أن يوقظهم، ويمدح جماعتهم دون أن يحاكمها، ويكشف أخطاء الآخرين دون أن يقترب من أخطائهم. أما الحق فلا يكون حقًّا إذا صار تابعًا لرغبات القارئ؛ إنما جاء ليقوده لا ليُقاد به.

حين يصبح طول الطريق سببًا للنسيان

ثم يأتي التحذير: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾. إن امتلاك الكتاب لا يعصم الأمة إذا هجرت روحه، ومعرفة الحق في جيلٍ لا تضمن بقاء حرارته في الأجيال اللاحقة. لقد أوتي السابقون كتابًا ونورًا، لكن شيئًا وقع في الطريق بين نزول الوحي وحياة الناس؛ طال الزمن، وتحولت المعاني الحية إلى عادات، والعهد الموقظ إلى موروثٍ بارد، فحملوا اسم الكتاب ولم تحمل قلوبهم خشوعه.

والقرآن لا يذكر تاريخ الأمم السابقة كي يمنحنا شعور التفوق عليها، بل كي يكشف لنا السنن التي يمكن أن تتكرر فينا. كل أمةٍ تتلقى الوحي يمكن أن تبدأ بحرارة الشهود ثم تنتهي إلى برودة الاعتياد، إذا ظنت أن مجرد الانتساب يحميها. وقد يقرأ المسلم مصير الذين أوتوا الكتاب قبله ثم يقع في الداء نفسه: يحمل المصحف، ويزين به بيته، ويعتز بانتمائه إليه، لكنه لا يسمح له أن يزعج مصالحه أو يصحح موازينه. ليس الفرق في امتلاك النص وحده، بل في بقاء الصلة الحية به.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾. لم تبدأ القسوة بقرارٍ صريح أن يرفضوا الله، بل بدأ الأمر بطول الأمد، مسافةٌ زمنية تسللت فيها الغفلة إلى القلب. والأمد ليس مجرد مرور السنوات، فكم من إنسانٍ طال عمره وازداد قربًا، وكم من شابٍ قصير العهد بالحياة قد شاخ قلبه في الغفلة. إنما طول الأمد حالةٌ روحية يشعر فيها الإنسان أن بينه وبين لحظة العهد مسافةً واسعة، يتأخر تجديد التوبة، وتبتعد حرارة البداية، وتتحول العبادات إلى حركاتٍ محفوظة لا دهشة فيها.

لكل طاعةٍ في أولها ومضة، ولكل توبةٍ حرارة، ولكل معرفةٍ دهشة، ثم يأتي الزمن فيختبر صدق الإنسان: هل يحفظ الشعلة أم يسمح للعادة أن تطفئها؟ قد يبدأ طالب العلم بقلبٍ يريد الهداية، ثم تتكاثر معلوماته حتى ينسى الجوع الأول الذي ساقه إليها، فيتحول العلم من طريقٍ إلى الله إلى طريقٍ للظهور. وقد يبدأ الداعية محمولًا على هم الرسالة، ثم يطول عليه الأمد فيصبح مشغولًا بمكانته في الرسالة أكثر من الرسالة نفسها. وقد يدخل العابد الصلاة بقلبٍ خائف، ثم يكررها أعوامًا حتى يحفظ جسده الحركات وينسى قلبه مَن يقف أمامه.

إن الخطر لا يكمن في العادة بذاتها؛ فالاستمرار في الخير يحتاج إلى عاداتٍ صالحة، لكن الخطر أن تصبح العادة بديلًا عن المعنى. أن تؤدي الصلاة لأن وقتها حان فقط، لا لأن النداء فتح لك باب لقاء، وأن تقرأ القرآن لإنهاء وردٍ عددي، لا لتسمع ما يقوله الله لقلبك، وأن تقول أذكارك بسرعةٍ كأنك تسدد دينًا ثقيلًا. العبادة التي فقدت روحها لا ينبغي أن تُترك، بل ينبغي أن تُبعث من جديد، وأن يستعاد داخلها السؤال الأول: لماذا أفعل هذا؟ وبين يدي مَن أقف؟ وإلى أين تحملني هذه الكلمات؟

تشريح القسوة الخفية

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. القسوة ليست دائمًا عدوانًا ظاهرًا، ولا تعني أن صاحبها لا يبتسم أو لا يتأثر بأي شيء؛ فقد يرق للموسيقى أو الشعر أو مشهدٍ إنساني، ثم يبقى قلبه قاسيًا تجاه أمر الله. القسوة القرآنية هي أن يفقد القلب قابليته للانقياد إلى الحق، وأن يسمع الموعظة فلا يتغير، ويرى الآية فلا يعتبر، ويقع في الذنب فلا يتألم. إنها طبقةٌ صلبة تتكون حول موضع الإحساس الروحي، حتى يصبح ما كان يهز الإنسان بالأمس خبرًا عابرًا اليوم.

ومن علامات القسوة أن يتكرر الذنب حتى يفقد قبحه في العين، وأن تتحول المعصية من لحظة ضعفٍ يبكي منها صاحبها إلى جزءٍ من هويته يدافع عنه ويغضب ممن ينكره. في أول الطريق يكون الضمير حيًّا يصرخ، ثم يخفض الإنسان صوته بالتبريرات، ويكرر الفعل حتى يتعب الضمير من الطرق، فيتوهم أن سكوته سلامة، مع أنه قد يكون أخطر علامات المرض. ليست الطمأنينة بعد الذنب دائمًا دليل رحمة؛ فقد تكون دليل أن القلب لم يعد يشعر بحجم ما فعل.

ومن القسوة أن يرى الإنسان آلام الآخرين فلا تتحرك فيه إلا الحسابات، وأن تمر أمامه المظالم فيبحث عن هوية المظلوم قبل أن يعترف بظلمه. القلب اللين يتألم للحق ولو كان مع خصمه، ويكره الظلم ولو صدر ممن يحب، أما القلب القاسي فيوزع الرحمة حسب الانتماء، ويجعل المبادئ خادمةً للعصبية. وما أقسى قلبًا يتلو آيات العدل ثم يبرر الجور إذا جاءه من جهته، ويتحدث عن كرامة الإنسان ثم يستثني منها مَن خالفه!

ومن القسوة أن يشتغل المرء بعيوب الناس حتى يعمى عن نفسه، فيخرج من كل موعظةٍ باسم شخصٍ آخر. إذا سمع عن الكبر تذكر متكبرًا يعرفه، وإذا سمع عن النفاق حاكم به خصمه، وإذا سمع عن قسوة القلب قال: ما أقسى قلوب الناس. وكأن القرآن نزل ليمنحه سلاحًا ضد الآخرين لا مرآةً يرى فيها باطنه. القلب الخاشع يبدأ بنفسه، لا يمنعه ذلك من إنكار الباطل، لكنه يخشى أن يكون فيه نصيبٌ مما ينكره.

ومن القسوة أن ييأس الإنسان من التوبة؛ لأن اليأس قد يبدو انكسارًا، لكنه يخفي سوء ظنٍّ برحمة الله. يقول: لقد فسدتُ ولن أتغير، فيجعل ماضيه أقوى من قدرة الله على إصلاحه. والشيطان لا يبالي بأي بابٍ أبعدك، إن لم يستطع أن يغريك بالأمنيات، أغراك بالقنوط، فإذا بك تترك الطريق لا لأنك استغنيت عن الله، بل لأنك توهمت أن الله لا يريد عودتك. لكن الآية التالية تأتي لتكسر هذا الوهم كله.

وقبل باب الأمل، يقول تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. فالقسوة الباطنة لا تبقى حبيسة الصدر، لا بد أن تخرج فسوقًا في السلوك. إذا لم يلن القلب للوحي، خرج عن حدوده، وإن احتفظ بشيءٍ من مظهر الانتساب إليه. الأعمال أنهارٌ تنبع من باطن الإنسان، قد يستطيع أن يخفي المنبع وقتًا، لكن الماء سيكشف طبيعته حين يجري. ولذلك لا يفصل القرآن بين إصلاح القلب وإصلاح الواقع؛ فكل ظلمٍ خارجي له جذورٌ في قلبٍ لم يخشع، وكل فسادٍ في المؤسسات بدأ حين قدَّم إنسانٌ هواه على الحق، وكل انحرافٍ كبير كان يومًا خاطرًا صغيرًا سمح له صاحبه أن يقيم.

لا تيأسوا: فالأرض الميتة تخضرُّ

ثم تأتي الآية التي تفتح في جدار القسوة نافذةً على الربيع: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. بعد الحديث عن القلوب القاسية، تذكر الأرض الميتة، فلا يكاد القلب يخطئ الإشارة: الذي يحيي التراب قادرٌ على أن يحيي القلب. انظر إلى أرضٍ يابسةٍ تشققت حتى ظن الناظر أنها فارقتها الحياة إلى الأبد، ثم ينزل عليها الماء، فلا يمر زمنٌ طويل حتى تشق البذور أكفانها، ويخرج الأخضر من قلب البني، وتستيقظ الروائح والألوان من موضعٍ لم يكن يوحي بشيء. أين كانت هذه الحياة مختبئة؟ ومَن حفظ سرها تحت ذلك الموت الظاهر؟ إنه الله الذي

لا يعجزه أن يستخرج النبض من الجماد، ولا النور من العتمة، ولا الخشوع من قلبٍ طال عليه الأمد.

اختيار لفظ ﴿اعْلَمُوا﴾ مهم؛ فلا يكفي أن تتمنوا إحياء قلوبكم، بل ينبغي أن تستيقنوا أن الإحياء ممكن. بعض الناس يحاول التوبة بقلبٍ لا يصدق أنه يمكن أن يتغير، فيعود إلى ذنبه عند أول عثرة؛ لأنه دخل الطريق وهو يرى ماضيه قدرًا لا يُكسر. أما القرآن فيأمره أن يعلم: الله يحيي. ليست مهمتك أن تخلق الحياة في قلبك من العدم، فهذا لله، لكن مهمتك أن تتعرض لمطر الهداية، وأن تزيل ما تستطيع من حواجز، وأن تطرق باب المحيي.

كما أن الأرض لا تستقبل المطر كله في لحظةٍ واحدة، فقد يحتاج القلب إلى مداومة. قد تقرأ اليوم فلا تجد ما كنت ترجو، وتصلي فلا تذوق، وتستغفر ولا ترى انقلابًا سريعًا؛ فلا تيأس. الماء الذي لا يظهر أثره فوق التراب قد يكون قد بدأ رحلته في الأعماق، يفكك اليبس حول بذرةٍ نائمة. استمر في السقي، فإن الله لا يضيع صدق الطالب، ورب كلمةٍ سمعتها منذ أعوام بقيت فيك حتى جاء أوان إنباتها.

ولكن الأرض التي يحجب عنها صاحبها المطر لن تخضر لمجرد أنه يتمنى الربيع. لا بد للقلب أن يخرج من مواطن القسوة، وأن يقطع بعض منابعها: فضول النظر الذي يملؤه بالصور، وفضول الكلام الذي يبدد صفاءه، وصحبةً تزين له الغفلة، وذنبًا يصر عليه ثم يسأل لماذا لا يخشع. ليس كل حجابٍ يزول بدمعة؛ بعض الحجب يحتاج إلى قرار، وبعض القيود لا تسقط إلا حين تتألم النفس من قطعها. التوبة ليست شعورًا جميلًا فحسب، بل انتقالٌ من أرض المعصية إلى أرض الطاعة.

ويحيي الله القلب بالقرآن كما يحيي الأرض بالماء؛ كلاهما ينزل من السماء، وكلاهما يحمل سر الحياة، وكلاهما يحتاج إلى محلٍّ يستقبله. وقد وصف الله الوحي بالروح والنور، لأن الإنسان من دونه قد يتحرك لكنه لا يحيا الحياة التي خُلق لها. إن الجسد يحيا بالطعام، والعقل بالمعرفة، أما القلب فيحيا بمعرفة الله وذكره؛ فإذا حُرم غذاءه لا تعوضه كنوز الأرض. قد ينجح صاحبه ويضحك ويسافر، لكن في أعمق موضعٍ منه صحراء لا يراها أحد.

ويحييه الله أيضًا بالتوبة، فهي مطر المذنبين؛ تغسل الغبار، وتفتح مسام الروح، وتعيد إلى الإنسان قدرته على البدء. ما من ماضٍ يملك أن يمنع الله من أن يخلق لك مستقبلًا جديدًا إذا صدقت، وما من كثرة ذنوبٍ تقف أمام سعة المغفرة. لكن التوبة ليست أن تتحدث طويلًا عن كراهيتك لما فعلت ثم تحتفظ بالطريق المؤدي إليه، بل أن تندم، وتقلع، وتعزم، وترد الحقوق، وتسد الأبواب التي دخل منها الظلام.

ويحيي القلب بصحبة الصادقين، فالقلوب تتنفس من بعضها، وقد تجالس إنسانًا فلا تسمع منه موعظةً مباشرة، لكنك تغادره وأنت أشد حياءً من الله، لأن صدقه ذكَّرك بالحقيقة. كما قد تجالس مَن يضحكك ويملأ وقتك، ثم تخرج منه وقد تراكمت طبقةٌ جديدة على قلبك. ليس الصاحب مجرد رفيق طريق، بل مناخٌ داخلي يتسلل إليك، فاختر لقلبك الهواء الذي يعيش فيه.

ويحييه بالمحنة أحيانًا، إذ تأتي الشدة فتحطم القشرة التي عجزت المواعظ عن اختراقها. يضيق الطريق، ويسقط ما اتكأ عليه الإنسان، فيكتشف بابًا إلى الله كان محجوبًا عنه باتساع الدنيا. ليس كل ألمٍ عقوبة، فقد يكون مشرط رحمةٍ يشق موضع الداء ليخرج ما فيه، وقد يكون صدمةً توقظ قلبًا كان يسير نائمًا نحو هاويته. ولو رأى الإنسان ما أنبتته بعض دموعه في روحه لربما عرف أن أيام الانكسار كانت من أخصب أيام حياته.

الآيات ليست معلومات، بل أدوات بعث

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. لم يتركك الله أمام قسوة قلوبكم بلا دليل، بل بيَّن الآيات، وكشف المرض، وفتح باب العلاج، وضرب لكم مثل الأرض بعد موتها. لكن البيان وحده لا ينفع من أغلق باب العقل؛ ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. والعقل في القرآن ليس آلةً لجمع المعلومات وحدها، بل قوةٌ تربط الدلالة بالنتيجة، والمعرفة بالعمل. أن تعقل الآية يعني أن تمسك بما فيها فلا يفلت من حياتك، وأن تفهم أن من يحيي الأرض قادرٌ على بعثك بعد موتك، وقادرٌ كذلك على بعث قلبك قبل موتك.

قد يرى الإنسان الأرض تخضر كل عام ولا يعقل الرسالة؛ لأنه توقف عند المشهد ولم يعبر إلى المعنى. يرى دورة الحياة والموت، ثم يعيش كأنه الاستثناء الوحيد من الفناء، ويسمع القرآن يصف القسوة، ثم يبحث عن قلوب الآخرين. أما العقل الحي فيحوِّل كل آيةٍ إلى سؤالٍ شخصي: ماذا تريد مني؟ أين موضعي منها؟ ما الشيء الذي ينبغي أن يتغير بعد أن سمعتها؟

وهكذا تقف هاتان الآيتان في قلب السورة كنبضٍ بالغ العمق؛ فالسورة التي بدأت بتسبيح السماوات والأرض لا تريد للإنسان أن يبقى الكائن الوحيد القاسي في كونٍ خاشع، والسورة التي حدثته عن النور لا ترضى أن يحمل في صدره حجرًا لا ينفذ إليه الضوء. إنها لا تقول له: قلبك قاسٍ فانتهى الأمر، بل تقول: ألم يأن؟ وتقول بعد التحذير مباشرة: الله يحيي الأرض بعد موتها. وبين السؤال والوعد تتشكل رحلة العودة كلها: أن تعترف بأن الأمد طال، وأن تسمع الحق من جديد كأنك تسمعه أول مرة، وأن تمد أرض قلبك إلى مطر القرآن، واثقًا بأن الذي يخرج الزهرة من شقوق التراب قادرٌ على أن يخرج من بين طبقات قسوتك قلبًا خاشعًا يعرف كيف يعود.

حين تصير الصدقة نورًا ويصير التصديق مقامًا

تأملات في الآيتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

بعد أن دعت السورة القلوب إلى الخشوع، وحذرتها من القسوة، وفتحت لها في مشهد الأرض بعد موتها نافذة الرجاء، تعود إلى الإنفاق مرةً أخرى، وكأنها تقول لنا إن حياة القلب لا تُقاس بما يشعر به في لحظة التأثر وحدها، بل بما يقدر على تحريره من نفسه بعد تلك اللحظة. إن القلب الذي أحياه القرآن لا بد أن تتحرك فيه ينابيع الرحمة، وأن تمتد حياته إلى ما حوله؛ فالخشوع الذي لا يجعل صاحبه أرحم بالضعيف، وأخف تعلقًا بالمال، وأسرع إلى النجدة، قد يكون انفعالًا لم يبلغ جذور النفس بعد. كما أن الأرض إذا أحياها المطر لم تحتفظ بالماء في باطنها فقط، بل أخرجت نباتها وزهرها وثمرها، كذلك القلب إذا نزل عليه ماء الوحي أخرج من داخله صدقًا وبذلًا ورحمة.

ولذلك يبدو تكرار الحديث عن الصدقة في السورة مقصودًا لإزالة أعمق أوهام الإنسان: وهم الامتلاك. فليس أصعب على النفس من أن تخرج ما ظنت أنه ضمانها، وليس أدل على صدق اليقين من أن تفتح اليد حين تهمس المخاوف لها أن تغلقها. المال ليس ورقًا أو معدنًا فحسب، بل هو زمنٌ من عمر الإنسان تحوَّل إلى قيمة؛ ساعاتٌ عملها، وأيامٌ تعب فيها، وآمالٌ علّقها على ما جمع. وحين ينفق منه، فإنه لا يخرج شيئًا خارجيًّا فقط، بل يقطع خيطًا من خيوط التعلق التي تربط روحه بالأرض. لذلك كانت الصدقة امتحانًا دقيقًا لموضع الدنيا في القلب.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾. جاء الخطاب شاملًا الرجال والنساء، لأن باب القرب لا يحتكر جنسه أحد، ولأن المال الذي يُبذل في الخفاء قد يكون في ميزان الله أعظم من أعمالٍ ملأت الآفاق ضجيجًا. كم من امرأةٍ مؤمنة اقتطعت من حاجتها شيئًا لا يعرفه الناس، فكان عند الله مالًا عظيمًا، وكم من رجلٍ أعطى كثيرًا ليقال عنه كريم، فلم يبق من عطائه إلا الصوت الذي طلبه! إن ميزان الله لا يقيس الأرقام وحدها، بل يزن ما في القلب، وما بقي في اليد، وحجم المجاهدة التي سبقت البذل.

وفي لفظ ﴿الْمُصَّدِّقِينَ﴾ صلةٌ خفية بين الصدقة والتصديق؛ فالصدقة برهانٌ عملي على أن صاحبها صدَّق وعد الله. المؤمن يقول بلسانه إن الله هو الرزاق، ثم تأتي لحظة العطاء لتسأل قلبه: هل صدَّقت حقًّا؟ ويقول إن الآخرة خيرٌ وأبقى، ثم توضع الدنيا في كفةٍ ووعد الله في كفة، وتُراقب اليد أيهما تختار. الصدقة ليست مجرد مساعدةٍ اجتماعية، مع جلال هذا المعنى، بل شهادةٌ يوقعها الإنسان بماله على أنه يثق بما عند الله أكثر مما يثق بما في خزانته.

ومن دقائق النفس أنها قد تتكلم عن الزهد ما دام الحديث لا يمس شيئًا تحبه، فإذا دُعيت إلى البذل ظهرت حقيقة منزل الدنيا فيها. ليس الزاهد من لا يملك، فقد يكون الفقير أشد تعلقًا بما يفقد من الغني بما يملك، وإنما الزهد أن تكون الأشياء في يدك دون أن تحتل قلبك، وأن تقدر على ترك بعضها لله حين يناديك الحق. الزهد ليس إتلاف النعمة، بل تحرير الروح من أن تكون النعمة إلهًا صغيرًا يوجه قراراتها.

والصدقة لا تبدأ حين يكثر المال، بل حين يصدق القلب. النفس تعد صاحبها دائمًا بكرمٍ مؤجل: إذا زاد راتبي أعطيت، وإذا استقرت حياتي وسَّعت على المحتاجين، وإذا فرغت من حاجاتي نظرت في حاجات الآخرين. غير أن حاجات النفس لا تنتهي؛ فكلما بلغت حدًّا رسمت وراءه حدًّا جديدًا، ومن لم يتعلم العطاء في القليل قد يزداد بخلًا حين يكثر ما يخاف عليه. إنما الكرم عضلةٌ روحية تقوى بالممارسة، واليد التي اعتادت الانفتاح لله لا تغلقها كثرة المال، أما اليد التي تربت على القبض فقد يتحول ما تجمعه إلى سلاسل أثقل.

وقد يكون أعظم ما في الصدقة أنها تعيد وصل ما قطعته الأنانية بين البشر. فالمال إذا دار في مجرى الرحمة صار حياةً للعلاقات، وإذا احتبس في خزائن الجشع صار سببًا للتباعد والحقد. حين يعطي القادر المحتاج بكرامة، يعلن أن المجتمع ليس غابةً يُترك فيها الضعيف لضعفه، وأن نعمة الفرد تحمل في داخلها حقًّا للآخرين. لكن الصدقة القرآنية لا تريد فقط إسكات جوعٍ مؤقت، بل تريد أن تبني إنسانًا؛ ولهذا يجب أن تُعطى بطريقةٍ تحفظ كرامته، وأن تُرفق -حيث أمكن- بما يفتح له باب الاستغناء، لا أن يبقى أسيرًا دائمًا ليد المعطي.

﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. يعود هذا التعبير المدهش مرةً أخرى، لأن النفس تحتاج إلى أن تسمع الضمان كلما حدثتها المخاوف. إنك لا تعطي مجهولًا، ولا تلقي مالك في فراغ؛ بل تقرض الله، بمعنى أنك تنفق ابتغاء وجهه فيما شرع، والله هو الذي تكفل لك بالخلف والثواب. والغني سبحانه لا يحتاج إلى قرض، ولكنه شرَّف المحتاج بأن جعل العطاء الواصل إليه كأنه واقعٌ في يد الكرم الإلهي، وشرَّف المنفق بأن صار له عند ربه وعدٌ مضمون.

وليس القرض حسنًا لمجرد أنه خرج، بل لحُسن المال وحُسن النية وحُسن الطريقة وحُسن الأثر. فمن أعطى من مالٍ خبيث لم يطهر عطاءه؛ لأن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، ومن أعطى لينتزع ثناء الناس أقرض صورته لا ربه، ومن أتبع عطاءه منًّا وأذى جرَّح الروح التي أراد الله أن يرحمها. وقد يكون المال حلالًا والنية خالصة، لكن طريقة التقديم قاسية؛ يقف المحتاج طويلًا على الباب، ويُسأل أمام الناس عما يفضحه، ويُشعر بأنه أدنى منزلة. هذه الصدقة قد تملأ اليد وتكسر القلب، والقرض الحسن لا يكسر ما يريد الله له أن يُصان.

من حسن القرض أن تبادر قبل أن يضطر المحتاج إلى كشف ستره؛ فالكرامة تتألم من السؤال، وبعض الناس يتضورون ولا يمدون أيديهم. يحتاج العطاء إلى بصيرةٍ ترى العلامات الخفية: ثوبًا طال استعماله، ووجهًا يخفي تعبه خلف الابتسام، وأبًا يغير موضوع الحديث حين تُذكر المصروفات، وأمًّا توزِّع القليل بحيث لا يشعر أطفالها بنقصه. الرحمة الذكية لا تنتظر الصراخ؛ إنها تسمع الصمت الذي وراء الكلمات.

ومن حسنه أن يخرج دون استعلاء. فأنت لا تعلم أيكما أكرم عند الله: اليد التي أعطت أم القلب الذي صبر. قد يكون الفقير عند ربه أعلى منزلةً من الغني الذي يتفضل عليه، وقد يكون احتياجه اليوم امتحانًا لك، كما كان غناك امتحانًا له في مشاعره تجاهك. توزيع الأرزاق لا يعني توزيع الكرامة؛ فالمال ليس شهادةً على حب الله، والفقر ليس شهادةً على هوان العبد. إن أكرم الناس عند الله أتقاهم، ورب أشعث أغبر لا يملك من الدنيا شيئًا لو أقسم على الله لأبره.

ومن حسن القرض ألا تحبس به حرية الإنسان. قد يعطي المرء مالًا ثم يطالب في مقابله بالولاء والصمت والتبعية، فيتحول إحسانه إلى شكلٍ ناعم من الاستعباد. أما الذي يعطي لله فلا يريد أن يملك من أعطاه؛ لقد خرج المال من يده، وينبغي أن يخرج معه شعوره بالسلطان. لا يذكِّر الفقير كلما خالفه بأنه أحسن إليه، ولا يجعل لقمة الأمس قيدًا على ضمير الغد. إن الصدقة التي تشتري الذمم ليست قرضًا حسنًا، بل صفقة سلطةٍ متنكرةً في هيئة الرحمة.

ومن حسنه الإخفاء حين يكون الإخفاء أصلح للقلب وأصون للمحتاج. فالصدقة السرية تحرر المعطي من إدمان التصفيق، وتحفظ للمعطى ستره، وتبني بين العبد وربه غرفةً لا يدخلها أحد.

وما أحوج الإنسان إلى أعمالٍ لا يعرف بها الناس! إن الروح التي تعيش كلها على مرأى الجمهور تفقد مساحتها المقدسة، وتصبح الطاعة عندها مرتبطةً بوجود المشاهد. أما العمل الخفي فيربي القلب على أن يكتفي بعلم الله، وأن يطمئن إلى أن ما غاب عن أعين الخلق لم يغب عن الخبير.

وقد يكون إظهار الصدقة خيرًا إذا قصد به القدوة وتحريك الناس إلى البذل وأمِن صاحبه على قلبه، لكن الميزان دقيق، والنفس بارعةٌ في تزكية رغباتها؛ فقد تسمي حب الظهور تشجيعًا للآخرين، وتسمي طلب السمعة إحياءً للقدوة. لذلك يحتاج المنفق إلى أن يفتش قلبه قبل العمل وأثناءه وبعده: قبل العمل حتى يخلص، وأثناءه حتى لا تتسلل حظوظ النفس، وبعده حتى لا يعجب ولا يمن. والإخلاص ليس لحظةً تنتهي عند خروج المال، بل حراسةٌ مستمرة للعمل من لصوص النفس.

المضاعفة التي لا تخضع لحساب الأرض

﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾. لا يحدد القرآن هنا عدد المضاعفة، كأن الباب تُرك مفتوحًا على كرمٍ لا يحسن العقل أن يحيط بمداه. والحبة حين توضع في التراب تختفي عن العين، ثم تعود سنابل كثيرة؛ وكذلك الصدقة تختفي من رصيد الدنيا، لكنها تدخل في نظامٍ آخر للنماء. ما نقص في الحساب الظاهر قد يكون قد بدأ تكاثره في الغيب، وما رآه الناس فقدًا يراه المؤمن تحويلًا من صورةٍ سريعة الزوال إلى صورةٍ باقية.

وقد تقع المضاعفة في الدنيا قبل الآخرة، لا بالضرورة في مالٍ يعود بالقدر نفسه، ولكن في بركةٍ تحرس الباقي، وطمأنينةٍ تسكن القلب، وبلاءٍ يُدفع، ومحبةٍ يضعها الله في النفوس، وأبناءٍ يتعلمون من يد أبيهم المفتوحة أن الحياة تعاونٌ لا افتراس. وقد ينفق الإنسان درهمًا فينقذ قلبًا من اليأس، ثم ينقذ ذلك القلب أسرةً أو يصنع خيرًا يمتد بعد موت المعطي؛ فيظل الأثر يتكاثر وهو في قبره لا يعلم مداه إلا الله.

ومضاعفة الأجر تكشف أن الاقتصاد الإلهي لا يشبه حسابات السوق؛ فالسوق يقول: ما خرج من يدك نقص من ملكك، والإيمان يقول: ما خرج لله بدأ وجوده الحقيقي. السوق يقيس قيمة الشيء بحجمه وسعره، والله يقيسه بالصدق والحاجة والأثر. لذلك سبقت دراهم قليلة أموالًا كثيرة؛ لأن الصغيرة كانت كبيرةً في قلب صاحبها، والكثيرة كانت صغيرةً في قلب مَن أخرجها. قد تعطي امرأةٌ لقمةً لا تملك غيرها، فيكون في جوعها الذي قاومته معنىً لا تحمله خزائن كاملة.

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾. يصف الله الأجر نفسه بالكرم، لأنه لا يأتي في صورة تعويضٍ جاف، بل في صورة إكرامٍ شامل. الكريم إذا أعطى لم يذكّر عبده بفقره، ولم يشعره أنه عبء، بل يستره ويقرّبه ويزيده فوق ما أمَّل. وإذا كان الأجر كريمًا، فهو محفوظٌ من النقص، مصونٌ من الانقطاع، يجده صاحبه في اللحظة التي يكون فيها أحوج ما يكون إليه. ورب صدقةٍ نسيها صاحبها، لأنها خرجت خالصةً ثم مضى، يستقبلها يوم القيامة نورًا لم يكن يعرف من أين جاء، فيقال له: هذا أثر يدك يوم لم يرها إلا الله.

من الإيمان إلى مقام الصدّيقيَّة

ثم ترتفع السورة من ذكر المصدّقين إلى مقام الصدّيقين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾. والصدّيقيَّة ليست مجرد صدقٍ عابر، بل امتلاءٌ بالتصديق حتى لا يبقى في القلب موضعٌ يكذّب العمل فيه القول. الصدّيق هو الذي صدق الله وصدَّق رسله، ثم صدق في حمل ما آمن به؛ إذا عرف الحق لم يساوم عليه، وإذا وعد وفى، وإذا خاف لم يحمله خوفه على خيانة يقينه. ليس معصومًا من الضعف، لكنه صادقٌ حتى في ضعفه؛ إذا زل لم يختبئ وراء التبرير، بل رجع واعترف واستغفر.

إن بين الصدق والتصديق صلةً عميقة؛ فمن صدَّق الله حقًّا صدق معه، ومن امتلأ قلبه بوعد الآخرة هان عليه أن يرفض مكاسب الكذب. الكاذب لا يكذب بلسانه فقط، بل يكذب أحيانًا بنمط حياته؛ يقول إن الله أكبر ثم تكون المصلحة عنده أكبر، ويقول إن الحق عزيز ثم يتركه عند أول تهديد، ويقول إنه عبدٌ لله ثم يعيد تشكيل دينه حتى يوافق هوى الناس. أما الصدّيق فيحاول أن يجعل حياته شرحًا للكلمة التي قالها: آمنت بالله.

والإيمان بالله ورسله وحدةٌ لا تتجزأ؛ فلا تُعرف مرادات الله باستقلال العقل عن الوحي، ولا يكون الإيمان بالله صحيحًا مع رد رسله أو التفريق بينهم. الرسل هم أمناء الخبر عن الله، جاؤوا ليخرجوا الإنسان من تخميناته إلى اليقين الذي مصدره الوحي. والإيمان بهم ليس احترامًا تاريخيًّا لشخصياتٍ عظيمة فحسب، بل قبولٌ للرسالة التي حملوها، ومحبةٌ لطريقهم، واستعدادٌ لدفع كلفة الصدق كما دفعوها.

والصدّيقية مقامٌ يبنى في التفاصيل اليومية قبل المواقف الكبرى. أن تصدق في كلمةٍ لن يُكشف كذبها، وأن تحفظ أمانةً يستطيع الجميع أن يظنوا أنك لم تأخذها، وأن تنصف خصمًا مع قدرتك على تشويهه، وأن تعترف بخطئك حين تمنحك مكانتك فرصةً للإنكار؛ هذه هي الطوب التي يُبنى بها مقام الصدق. لا يصير الإنسان صدّيقًا في لحظة بطولةٍ واحدة إذا كانت حياته اليومية قائمةً على المراوغة؛ فالمواقف الكبرى تكشف ما راكمته التفاصيل، ولا تخلقه من عدم.

والصدق مع الله يعني ألا تقدم له صورةً مصنوعةً من نفسك؛ أن تدخل الدعاء بفقرك الحقيقي، والتوبة بذنبك الحقيقي، والعبادة بضعفك الذي تعرفه. الله يعلمك، فلا معنى للتجمُّل بين يديه، لكنه يحب منك أن تعترف وتنكسر. وقد يكون العبد أقرب إلى الله وهو يقول: يا رب، لا أجد في نفسي ما ينبغي، فأصلحني؛ من عبدٍ يتحدث بلسانٍ مليء بالدعاوى وهو معجبٌ بصورته.

والصدق مع النفس أن تكف عن صناعة الأعذار التي تحمي عيوبك. كثيرٌ من الناس لا يعجزون عن التغيير بسبب ضعف القدرة، بل لأنهم لم يسموا مرضهم باسمه؛ يسمون الجبن حكمة، والبخل تدبيرًا، والحسد نقدًا، وحب السيطرة حرصًا على المصلحة. وما دام الداء يحمل اسمًا جميلاً فلن يطلب صاحبه له علاجًا. الصدق مشرطٌ مؤلم، لكنه بداية الشفاء؛ أن تقول لنفسك: أنا أخاف الناس أكثر مما ينبغي، أو أحب الظهور، أو أحمل في قلبي غلًّا، ثم تتوجه إلى الله مجاهدًا، خيرٌ من أن تبني حول جرحك قصرًا من البلاغة.

والصدق مع الناس ليس كشف كل ما في النفس، فالحكمة لها مقامها والستر له فضله، لكنه يعني ألا تستعمل الكلمات جسورًا إلى خداعهم، وألا تقول لهم ما تعلم أنك لا تقصده، وألا تصنع وعدًا تستدر به رضاهم وأنت تنوي نقضه. الإنسان الصادق يمنح الآخرين أمانًا؛ لأنهم لا يحتاجون إلى البحث دائمًا عما وراء عباراته، ولا إلى توقع الطعنة من الموضع الذي أظهر فيه الود.

الشهداء عند ربهم

ثم يقول تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. وقد قرأ أهل العلم تركيب الآية على معانٍ معتبرة؛ فمنهم من جعل الشهداء صنفًا معطوفًا له منزلته وأجره ونوره، ومنهم من وصل المعنى بالمؤمنين الصادقين من جهة شهادتهم للحق. وفي كلتا الدلالتين يلوح معنى الحضور والكرامة؛ فالشهادة ليست غيابًا في الموت، بل حضورٌ عند الرب، وليست نهاية صوت الحق، بل ختمٌ له بأغلى ما يملك الإنسان.

الشهيد قدَّم حياته نفسها بعدما قدَّم المؤمن ماله؛ والمال بعض العمر، أما الروح فهي وعاء العمر كله. ولذلك كانت الشهادة مقامًا عاليًا؛ لأن صاحبها صدَّق أن ما عند الله خيرٌ من البقاء، وأن الحق أثمن من جسدٍ سيزول على كل حال. ولم يكن حبه للموت، بل كان حبه لله والحق أقوى من خوفه من الموت. إنه لا يلقي بنفسه إلى الهلاك، ولا يحتقر نعمة الحياة، لكنه حين توضع الحياة في كفةٍ وخيانة المبدأ في كفة، يختار أن يحفظ المعنى ولو فني الجسد.

والشهيد «عند ربه»؛ وهذه العندية كرامةٌ وقربٌ لا تحيط العبارة بجماله. قد يظن أهل الأرض أنه خسر كل شيء، لأنه ترك بيتًا وأحبةً وأحلامًا لم تكتمل، لكن القرآن ينقل البصر من

مشهد الجسد الذي فارق الأرض إلى مقام الروح عند ربها. هناك يتغير تعريف الخسارة؛ ليس الخاسر مَن قُتل في سبيل الحق، بل مَن عاش طويلًا وقد ماتت فيه الحقيقة، وليس الناجي مَن حفظ جسده بأي ثمن، بل مَن لقي الله ولم يبع أمانته.

لكن معنى الشهادة أوسع من لحظة الموت من جهة الشهادة للحق في الحياة؛ فالأمة المؤمنة شاهدةٌ على الناس بما تحمل من وحي، وهذه الشهادة لا تصح بالكلام وحده. ينبغي أن ترى البشرية في عدل المؤمنين دليلًا على عدل الرسالة، وفي رحمتهم أثرًا من رحمتها، وفي صدقهم برهانًا على صدق ما يحملون. أما إذا رفعوا شعار الوحي ثم ظلموا، فقد حجب سلوكهم شهادته عن الناس، وصارت أفعالهم فتنةً لمن ينظر إليهم. إن حامل الحق مسؤولٌ عن ألا يشوه الحق بطريقته في حمله.

عند ربهم: حيث لا تضيع منزلة

قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعيد تصحيح ميزان المكانة. قد يكون الصدّيق مجهولًا في الأرض معروفًا في السماء، وقد يكون الشهيد رقمًا في خبرٍ عابر، لكنه عند ربه صاحب مقام. الناس يمنحون المكانة بحسب ما يظهر لهم من القوة والجاه والإنجاز، أما عند الله فتنكشف مقادير الصدق. وما أكرم أن يكون للإنسان عند ربه اسمٌ حسن ولو أهمله التاريخ، وما أفدح أن يملأ اسمه الدنيا ثم لا يكون له في مقام القرب نصيب!

العمل «عند الله» لا تضره قلة التصفيق، ولا يزيده ضجيج المادحين. وقد يطلب الإنسان أن يعترف الناس بفضله، وينسى أن أعظم الاعتراف أن يعلمه الله صادقًا. ليس هذا دعوةً إلى ترك السمعة الحسنة أو احتقار تقدير الخلق، فالقبول نعمة، لكنه دعوة إلى ألا يصبح نظر الناس القبلة الخفية التي تتجه إليها الأعمال. إذا رضي الله، فما الذي نقصك من غفلة العيون؟ وإذا لم يرض، فما الذي أضافته إليك احتفالات العالم؟

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. يعود النور مرةً أخرى، كأن السورة تنسج من أولها إلى آخرها خيطًا مضيئًا لا ينقطع. للصدق نور، وللإيمان نور، وللإنفاق نور، وللشهادة نور. إن الأعمال الصالحة ليست تكاليف ثقيلةً يحملها الإنسان حتى يتخلص منها، بل مواد يصنع منها مصباح مصيره. كل موقف صدقٍ يضيف إلى النور شعاعًا، وكل تضحيةٍ في سبيل الله توسع دائرته، وكل رجوعٍ بعد زلة يمسح عن زجاجه غبارًا.

ولهم أجرهم كاملًا لا يُبخسون منه شيئًا. قد تبخسهم الدنيا، فيُنسب جهدهم إلى غيرهم، أو يُساء فهم مقصدهم، أو يتقدم عليهم من هو أقل منهم إخلاصًا وأعلى صوتًا، لكن الله لا يضيع. عنده تحفظ النية التي لم يفهمها الناس، والمحاولة التي لم تنجح في أعينهم، والخطوة التي تعثر صاحبها قبل إتمامها لكنه خرج إليها صادقًا. إن نتائج الأرض ليست المعيار الوحيد لقيمة

العمل؛ فقد يُكتب للإنسان أجر مقصدٍ صادق حالت بينه وبين إتمامه أقدار الله، وقد يحقق آخر نتيجةً عظيمة ولا يكون له منها إلا ما قصد.

أصحاب الجحيم: حين تصير المكابرة إقامةً دائمة

وعلى الجانب الآخر تقول الآية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. لم يكن كفرهم جهلًا عابرًا فقط، بل صاحبه تكذيبٌ بالآيات؛ موقفٌ من النور، وإصرارٌ على رده بعد أن جاءتهم دلائله. الآيات كانت أبواب نجاة، لكنهم حولوها إلى مواضع خصومة، وكلما جاءهم نورٌ أطفؤوا في أنفسهم قابلية الاستجابة له حتى صار الظلام وطنًا اختاروه.

ولفظ ﴿أَصْحَابُ﴾ يفيد الملازمة؛ فقد صاحبوا في الدنيا أسباب الجحيم من كفرٍ وتكذيب، فصار الجحيم في الآخرة صاحبهم الذي لا يفارقهم. الإنسان يصنع صحبته الأبدية بما يصاحبه في قلبه اليوم؛ من صاحب النور قاده إلى دار النور، ومن صاحب الهوى حتى صار جزءًا منه قاده إلى المصير الذي يناسبه. لا تبدأ النار يوم القيامة من فراغ؛ إن لها بذورًا في الدنيا: كبرٌ يرفض الحق، وظلمٌ يأكل الضعفاء، وقلبٌ يستمتع بإطفاء النور في الآخرين.

والمقابلة بين ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ و﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ تكشف أن قضية الإنسان الكبرى هي موقفه من النور الذي جاءه. قد يتفاوت الناس في قدراتهم وظروفهم، لكن السؤال الحاسم: ماذا فعلت بما بان لك من الحق؟ هل صدقته، ثم دفعت ثمن تصديقك من مالك وهواك وراحتك، أم كذَّبته لأن قبوله كان سيجبرك على تغيير ما تحب؟ إن بعض الناس لا يرفضون الحقيقة لضعف أدلتها، بل لقوة مطالبها؛ يعرفون أن دخول النور سيكشف أشياء بنوها في الظلام، فيختارون اتهام المصباح بدلًا من تنظيف الغرفة.

وهكذا تجمع الآيتان بين الصدقة والتصديق والصدِّيقية والشهادة والنور، كأنها ترسم درجات الصدق وهو يصعد بالإنسان: يبدأ تصديقًا في القلب، ثم يخرج صدقةً من اليد، ثم يصير خلقًا ثابتًا يملأ الحياة، ثم يبلغ بصاحبه أن يشهد للحق بوجوده كله. وليست هذه المقامات أجزاءً متباعدة، بل نهرًا واحدًا؛ فَمَن صدَّق وعد الله هان عليه المال، ومن هان عليه المال لله هانت عليه حظوظ النفس، ومن تحرر من حظوظها استطاع أن يقف مع الحق حين يخشاه الآخرون، ومن ثبت في مقام الشهادة أكرمه الله بأجره ونوره عنده.

خمسُ كلماتٍ تختصر وهمَ الحياة

تأملات في الآية العشرين

يقول الله تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

تأتي هذه الآية بعد الحديث عن الصدقة والصدّيقية والشهادة والنور، لتكشف للإنسان المنافس الأكبر الذي يسرق منه هذه المقامات: الحياة الدنيا حين تُرى منفصلةً عن الآخرة، وحين تتحول من مزرعةٍ إلى غاية، ومن جسرٍ إلى وطنٍ نهائي، ومن نعمةٍ تُستعمل في طاعة الله إلى حجابٍ يحجب عنه. والسورة لا تذم الحياة من حيث إنها خلق الله وميدان الاستخلاف وموضع العمل الصالح؛ فالسماء والأرض سبَّحتا لله في أولها، والمال يمكن أن يصير قرضًا حسنًا، والقوة ستُذكر وسيلةً لإقامة القسط. وإنما تذم «الحياة الدنيا» حين يُستنفد الإنسان داخل سطحها الأدنى، فلا يرى وراء الزينة معنى، ولا وراء الزمن لقاء، ولا وراء الامتلاك أمانة.

﴿اعْلَمُوا﴾؛ إنها ليست موعظةً عاطفيةً عابرة، بل حقيقةٌ يجب أن تُعرف وتستقر. ينبغي أن تعلم طبيعة الدنيا كما تعلم أن النار تحرق والماء يروي؛ لأن الخطأ في تعريف الدنيا ليس خطأً فكريًّا صغيرًا، بل أصلُ كثيرٍ من الانحرافات. إذا ظننتها دار بقاء، أكلتك مخاوف الفقد، وإذا ظننت متاعها مقياس الكرامة، عبدت ما تملك وحسدْت مَن يملك أكثر، وإذا نسيت أنها امتحان، قرأت النعمة بوصفها تكريمًا مطلقًا والابتلاء بوصفه إهانة، مع أن كليهما سؤالٌ يوجَّه إلى القلب.

ولم يقل القرآن: لا تعيشوا الدنيا، بل قال: اعلموا حقيقتها. تستطيع أن تعمرها دون أن تُفتن بها، وأن تستمتع بحلالها دون أن تتخذ لذتها معبودًا، وأن تحب أهلك ومالك دون أن تجعل حبهم حاجزًا بينك وبين الله. إن الزهد الصحيح ليس أن تنظر إلى جمال الخلق باحتقار، بل ألا يمنعك الجمال العابر من رؤية الجميل الباقي؛ وليس أن تترك مسؤوليات الأرض، بل أن تؤديها وأنت تعرف أنك ستغادر. المؤمن لا يهرب من الدنيا، وإنما ينجو من أن تدخل الدنيا إلى الموضع الذي خُلق لمحبة الله.

اللعب: حركةٌ تستهلك الوقت ولا تصنع المعنى

﴿لَعِبٌ﴾؛ اللعب حركةٌ لها قوانينها وحماستها وانتصاراتها المؤقتة، لكنها تنتهي بانتهاء زمنها، ويعود اللاعبون بعدها إلى واقعٍ أكبر منها. وهذا هو وجه الشبه بالدنيا حين تُفصل عن غايتها: يركض الناس داخل ميادين صنعوها، ويتنافسون على علاماتٍ اتفقوا على منحها قيمة، ثم تأتي النهاية فتطوي اللوحة وتعيد الجميع إلى الحقيقة. طفلٌ يبني بيتًا من الرمل، ثم يبكي إذا هدمته موجة، والكبير يبني أشكالًا أكثر تعقيدًا من الرمل نفسه، وقد يبكي العمر كله إذا هدم الموت بناءه؛ مع أن الفرق بينهما ليس دائمًا في طبيعة التعلق، بل في حجم اللعبة وأسمائها.

المنصب لعبةٌ حين ينسى صاحبه أنه تكليف، والمال لعبةٌ حين يصبح جمعه غايةً بلا رسالة، والشهرة لعبةٌ حين يقيس الإنسان وجوده بعدد العيون الملتفتة إليه. ليست الأشياء نفسها باطلة، لكن النية والغاية قد تحوّلانها إلى لعب. قد يعمل رجلان العمل نفسه، أحدهما يعمر به الأرض وينفع الخلق ويبتغي وجه الله، فيصبح عمله عبادة، والآخر يريد أن يملأ فراغ ذاته بإعجاب الناس، فيظل يدور داخل لعبةٍ لا تُشبعه.

واللعب ليس مذمومًا في موضعه؛ للنفس حقها من الراحة والمباح، وللطفل عالمه الذي يتعلم فيه، لكن الكارثة أن تتحول الحياة كلها إلى لعب، وأن يعيش الإنسان على هامش رسالته. يهرب من سؤال الوجود إلى الترفيه المتواصل، ويملأ كل لحظةٍ بصوتٍ أو صورةٍ كيلا يسمع الصمت وهو يسأله: لماذا أنت هنا؟ قد يضحك كثيرًا لا لأنه سعيد، بل لأنه يخشى اللحظة التي ينفرد فيها بنفسه. وهكذا يصبح اللعب مخدرًا يحميه مؤقتًا من مواجهة الفراغ الذي صنعتْه حياةٌ بلا غاية.

إن أخطر أنواع اللعب ما ارتدى ثوب الجِد؛ فقد يمضي المرء أعوامًا في مشروعٍ يظنه عظيمًا، وهو في ميزان الأبد مجرد حركةٍ حول ذاته. يبني اسمه، ويقهر منافسيه، ويتقدم في سُلَّمٍ وضعه المجتمع، لكنه لم يسأل مرةً إن كان السلم مسندًا إلى الجدار الصحيح. ليست المشكلة أن تصعد ببطء، بل أن تصل إلى القمة ثم تكتشف أنك كنت تصعد في الاتجاه الخطأ.

اللهو: حين ينشغل القلب عن الشيء الأهم

ثم ﴿وَلَهْوٌ﴾. وإذا كان اللعب حركةً في شيءٍ لا يحمل الغاية الكبرى، فاللهو انشغالٌ بشيءٍ عما هو أولى منه. قد يكون الشيء في ذاته مباحًا، لكنه يصبح لهوًا حين يسرقك من واجب الوقت، ويأخذ من قلبك المساحة التي ينبغي أن تكون لله ولما ينفعك. الدنيا لا تحتاج دائمًا إلى أن تقنعك بإنكار الآخرة؛ يكفيها أن تلهيك عنها. لا تقول لك: لا موت، بل تبقيك مشغولًا حتى يأتي الموت، ولا تقول: لا تصلِّ، بل تمنحك أمرًا يبدو عاجلًا كلما حان وقت الصلاة، ولا تقول: لا تتب، بل تهمس: ليس الآن.

وهذا من أدق مداخل الغفلة؛ فالإنسان قد لا يختار الباطل صراحة، لكنه يستهلك عمره في الأقل أهميةً حتى لا يبقى للأهم شيء. يقرأ عشرات الأخبار التي لا تغير من حياته شيئًا، ويتابع نزاعاتٍ لا شأن له بها، ويفتش في تفاصيل الناس، ثم يقول إن وقته لا يتسع لصفحاتٍ من القرآن أو ساعةٍ من التأمل. الوقت لم يضق، لكن اللهو ملأه. والقلب إن لم تحدد له وجهته التهم كل ما يعرض أمامه، كما تلتهم النار الهشيم دون أن تشبع.

واللهو قد يكون بالألم كما يكون باللذة؛ فقد ينشغل المرء بجرحٍ قديم حتى يلهيه عن بقية حياته، ويعيد قصة ظلمه كل يوم حتى تتحول من حادثةٍ وقعت له إلى هويةٍ يسكنها. لا يطلب القرآن من الموجوع أن ينكر ألمه، بل ألا يسمح للألم أن يحجبه عن الله وعن أبواب الخير الباقية. حتى الحزن قد يصير دنيا إذا احتل القلب كله، وصار المرء يعبد خسارته بطريقةٍ خفية، فلا يرى نعمةً بعدها ولا رسالة.

وقد يكون اللهو بالعمل الصالح نفسه إذا استُعمل للهروب من واجبٍ أولى؛ كمن يكثر من شأنٍ تطوعي لأنه يمنحه تقدير الناس، بينما يضيّع حقًّا لازمًا لا يراه أحد، أو ينشغل بإصلاح البعيد كيلا يواجه فسادًا في بيته أو نفسه. فليس كل انشغالٍ بالدين نجاةً من اللهو؛ الميزان أن تعرف مراد الله منك في لحظتك، لا أن تختار من الأعمال ما يخدم صورتك.

الزينة: حين يختلط الغلاف بالحقيقة

ثم ﴿وَزِينَةٌ﴾. الزينة شيءٌ يضاف إلى الأصل ليحسّن صورته، لكنها لا تغيّر حقيقته. قد يُزيَّن الضعف فيبدو قوة، ويُزيَّن الفراغ فيبدو امتلاءً، ويُزيَّن الفساد بأسماءٍ براقة حتى يطلبه الناس. والدنيا ماهرةٌ في عرض أغلفتها؛ تمنح الأشياء بريقًا أكبر من قيمتها، وتجعل الإنسان يطارد الصورة حتى ينسى الجوهر.

الجسد زينةٌ حين ينسى صاحبه الروح، والبيت زينةٌ حين يتحول من سكنٍ إلى معرضٍ للتفوق على الآخرين، والثياب زينةٌ حين لا تعود سترًا وجمالًا مباحًا، بل وسيلةً لتحديد قيمة الإنسان. حتى الثقافة والعلم قد يصيران زينةً إذا حُملا لإبهار المجالس لا لتحرير العقل وخدمة الحق. ليس العيب في الجمال؛ فالله جميل يحب الجمال، وإنما العيب أن يصبح المظهر ميزان الحقيقة، وأن يُهمل الباطن في سبيل غلافٍ مصقول.

نحن نعيش كثيرًا تحت سلطان العين؛ نعتني بما يُرى ونترك ما لا يُرى. ننظف الواجهة ونؤجل خراب الداخل، ونحسن عبارتنا أمام الناس ولا نحسن حديثنا مع أهل بيوتنا، ونبني صورةً رقيقةً من السعادة بينما أرواحنا تئن في الخفاء. الزينة حين تنفصل عن الصدق تصبح قناعًا، والقناع يحتاج إلى جهدٍ دائم لحمايته؛ يخاف صاحبه أن يقترب أحدٌ أكثر مما ينبغي، أو أن يقع في لحظةٍ تكشف التفاوت بين ما يعرضه وما هو عليه.

والقرآن لا يريد إنساناً قبيح الظاهر مهملاً بحجة الزهد، بل يريد أن يكون جمال الظاهر تابعًا لجمال الباطن لا بديلًا عنه. أن تتزين دون أن تقيس كرامتك بزينتك، وأن تمتلك دون أن تقيس إنسانيتك بممتلكاتك، وأن تعرض الجميل دون أن تزور الحقيقة. فالبيت الأجمل هو الذي تسكنه الرحمة، والثوب الأكرم ما ستر جسدًا لا يمشي إلى ظلم، والوجه المنير ليس بالملامح وحدها، بل بما يخرج من القلب إلى العين من سلام.

التفاخر: حين لا تكفي النعمة حتى يراك الآخرون

ثم ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾. بعد أن يتزين الإنسان بما يملك، يريد أن يرى أثر زينته في أعين الآخرين؛ فلا يكفيه الشيء حتى يعلم الناس أنه له، ولا تكفيه النعمة حتى تصنع له منزلة فوقهم. التفاخر هو انتقال النعمة من باب الشكر إلى منصة المقارنة. بدل أن يقول: ماذا أفعل بما أعطاني الله؟ يسأل: مَن أقل مني؟ وبدل أن يرى العطاء مسؤولية، يجعله برهانًا على استحقاقه التفوق.

وكلمة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ تكشف أن التفاخر لعبةٌ اجتماعية لا يستطيع أحدٌ أن يلعبها وحده؛ كل طرفٍ يحتاج إلى عين الطرف الآخر حتى يشعر بقيمته. يشتري ما لا يحتاج إليه لأن غيره سيشاهده، ويتحمل من الديون ما يرهقه كي يحافظ على مستوىً رسمته المقارنة، وينسى مذاقه الخاص ورسالته لأنه مشغولٌ بموقعه في ترتيب الناس. وهكذا يصبح المجتمع مرآةً كبيرة يقف الجميع أمامها، وكل واحدٍ يطلب من انعكاسه أن يقول له: أنت أكثر.

والتفاخر لا يكون بالمال وحده؛ قد يتفاخر المرء بالنسب، أو العلم، أو العبادة، أو المعاناة، أو حتى بالزهد. قد يحتقر الأغنياء ليثبت لنفسه تفوقًا روحيًّا، فيقع في الكبر من الباب الذي ظن أنه يهرب منه. وقد يتفاخر طالب العلم بعدد ما قرأ، فيتحول النور الذي كان ينبغي أن يعلّمه التواضع إلى مادةٍ لاحتقار من لم يقرأ. وكل نعمةٍ يمكن أن تصير سُلَّمًا إلى الشكر أو منصةً للكبر، الفرق في اتجاه القلب.

والتفاخر في حقيقته دليل فقر، لا غنى؛ لأن الممتلئ لا يحتاج إلى أن يثبت امتلاءه كل لحظة. من عرف قيمته بعبوديته لله لا يستجديها من هزيمة الآخرين، ومن استقر قلبه في محبة مولاه لا يضطرب إذا لم يلتفت إليه الناس. أما الذي لا يجد في داخله أساسًا للقيمة، فيبحث عن شخصٍ يقف دونه كي يشعر أنه مرتفع. ولذلك لا يعالج التواضعُ مظهرَ التفاخر فقط، بل يعالج الجوع العميق إلى الاعتراف، ويعيد الإنسان إلى حقيقة أنه مخلوقٌ من تراب، وأن كل ما يتفاخر به عطيةٌ يمكن أن تُسلب.

التكاثر: حين تتحول الأرقام إلى هوية

ثم تبلغ السلسلة ذروتها: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾. التفاخر مقارنة، والتكاثر محاولةٌ مستمرة لزيادة ما تتفاخر به. لا يعود المال وسيلةً للحياة، بل يصبح الرقم نفسه غاية، ولا يعود

السؤال: هل يكفيني؟ بل: هل تجاوزت غيري؟ إن التكاثر لا يعرف حدًّا، لأن الرقم الذي كان حلمًا بالأمس يصبح بعد بلوغه أمرًا عاديًّا، ثم يولد فوقه رقمٌ آخر. النفس لا تشبع من الكثرة إذا طلبتها لذاتها؛ فهي كمن يشرب من ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا.

ولا يذم القرآن كثرة المال والأولاد من حيث ذاتها؛ فالمال الصالح في يد الصالح نعمة، والولد الصالح امتدادٌ من الخير. وإنما يذم «التكاثر» حين يصبح الإنسان مستغرقًا في العد والمباهاة، ويرى المال والأولاد أدواتٍ لتضخيم ذاته لا أماناتٍ لله فيها حقوق. قد يطلب الولد لا ليعبُد الله ويعمر الأرض، بل ليحمل اسمه ويزيد به عدد عشيرته، وقد يجمع المال لا ليصنع به نفعًا، بل ليشعر أنه أكثر وزنًا من الآخرين.

والتكاثر الحديث اتسعت أشكاله؛ صار الإنسان يعد المتابعين والمشاهدات والإعجابات كما كان يعد الذهب، وقد تتغير الأوعية ويبقى المرض واحدًا. يفرح بالرقم ولو لم يعرف هل حمل أثرًا صالحًا، ويحزن إذا قلَّ الانتباه إليه ولو كان ما يقدمه صادقًا. يصبح الوجود معلقًا بإحصاءٍ يتغير كل ساعة، ويمنح غرباء لا يعرفهم سلطةً على مزاجه وقيمته. ليست الأرقام شرًّا؛ فهي أدواتٌ للفهم والقياس، لكن الكارثة أن تتحول من معلومةٍ عن الانتشار إلى حكمٍ على معنى الإنسان.

وقد يتكاثر الإنسان في الأفكار والمشروعات دون أن يثمر شيئًا؛ يبدأ كثيرًا ولا يتم، ويجمع الكتب ولا يقرأ، ويكدس المعارف ولا يهضمها، ويعيش تحت وهم الكثرة بينما حياته الحقيقية فقيرة. الكثرة التي لا تنتظم حول رسالةٍ قد تكون صورةً أخرى من التشتت، والإنجاز ليس بعدد ما فتحت من أبواب، بل بما عبرت منه إلى النهاية وصنعت به أثرًا.

رحلة الإنسان من اللعب إلى التكاثر

وقد رأى المتأملون في هذه الكلمات الخمس صورةً لمراحل تتكرر في العمر: فالطفل يغلب عليه اللعب، والشاب يجذبه اللهو، ثم يعتني الإنسان بالزينة، ثم يدخل معترك التفاخر، ثم يشغله التكاثر في المال والولد. وكأن الآية تختصر حياةً كاملةً في أنفاسٍ قليلة، منذ أن يركض الطفل خلف لعبته إلى أن يجلس الشيخ يعد ما جمع ومَن خلَّف. تختلف الأشياء، لكن القلب قد يبقى يدور في الدائرة نفسها؛ لعبةٌ صغيرة تصير لعبةً كبيرة، وزينةٌ بسيطة تتحول إلى قصور، ورغبةٌ في التفوق تتضخم حتى تستهلك العمر.

غير أن الآية لا تحكم على كل إنسان بأن يكون أسير هذه المراحل؛ إنها تكشف المسار الطبيعي للدنيا إذا تُركت النفس بلا هداية. يستطيع الوحي أن يقطع الدائرة، فيجعل لعب الطفل تعلمًا، وقوة الشباب عبادةً وعمرانًا، وجمال الزينة شكرًا، ومكانة النضج خدمةً، وكثرة المال

والأولاد مسؤوليةً ممتدة الأثر. الإسلام لا يلغي مراحل الحياة، بل يعيد توجيهها نحو الآخرة؛ فيصير كل ما كان مادةً للغرور مادةً للقرب.

الغيث الذي يوقظ الأرض ثم يودعها

ثم يضع القرآن أمامنا مشهدًا كونيًّا يختصر سيرة الدنيا: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾. الغيث مطرٌ يأتي عند الحاجة، فتنهض به الأرض، وتلبس بعد عريها ثوبًا أخضر، وتنتشر فيها الحياة. و﴿الْكُفَّارَ﴾ هنا يدخل في معناها اللغوي الزُّرَّاع الذين يسترون البذر بالتراب، كما أن اللفظ لا يخلو في السياق من إيحاءٍ بمن يقف عند ظاهر الحياة فلا يعبر إلى خالقها وآخرتها. يرى الزارع نباته فيعجبه، وهذا الإعجاب فطري، فالجمال يلفت، والخصب يسر، لكن الخطأ أن يظن أن لحظة الاخضرار هي الحقيقة كلها.

الدنيا في ربيعها فاتنة، الشباب متدفق، والصحة قوية، والمال مقبل، والأحباب مجتمعون، والمستقبل واسعٌ في العين. ينظر الإنسان إلى نبات حياته فيعجبه، وقد ينسى أن الأخضر نفسه يحمل داخله قانون الاصفرار. ليس القرآن عدوًّا للفرح؛ إنه يريدك أن تفرح دون أن تُخدع، وأن تستمتع بالزهرة وأنت تعرف أنها أمانة زمنية لا إلهٌ خالد. فالمعرفة بالفناء لا تقتل الجمال، بل قد تزيده رقة؛ لأنك تعطي اللحظة حقها من الشكر، ولا تؤجل المحبة، ولا تتعامل مع النعمة كأنها مضمونة.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: يبلغ النبات تمامه وقوته، وقيل ييبس ويجف بعد اكتماله. وكأن الذروة نفسها بوابة الانحدار، فالشيء حين يكتمل في الدنيا يبدأ اقترابه من النقص. يكتمل القمر ثم ينقص، ويبلغ الجسد أشده ثم يبدأ الضعف الخفي، وترتفع الحضارة حتى تظهر فيها أسباب أفولها. لا ثبات في عالمٍ خُلق على التحول، وكل محاولةٍ لتجميد لحظة الجمال محكومٌ عليها بالفشل.

﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾: أنت الذي كنت تنظر إليه معجبًا بخضرته ستراه بعينك وقد غادره اللون. التحول ليس خبرًا بعيدًا، بل مشهدٌ ستشهده في نفسك ومَن حولك. الوجه الذي امتلأ شبابًا تتسلل إليه تجاعيد الزمن، واليد التي كانت قويةً ترتعش، والبيت الذي ضج بالأطفال يسكن حين يغادرون، والصورة التي كانت حاضرًا تتحول إلى ذكرى. الاصفرار لا يستأذن الإعجاب، ولا يتوقف لأن الإنسان لم يكتف بعد من الربيع.

غير أن في الاصفرار جمالًا آخر لمن أبصر؛ إنه يعلّم القلب أن ينتقل من حب الصورة إلى حب المعنى، ومن التعلق بالجسد إلى الوفاء للروح. من أحب الناس لزينة شبابهم وحدها تبدل حبه بتبدلهم، ومن أحبهم لما فيهم من إيمانٍ وخلقٍ ورفقة ازداد بهم رحمةً حين ضعفت أجسادهم. الزمن يختبر نوع الحب؛ هل كان حبًّا للشخص أم انتفاعًا من ازدهاره؟

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾. لم يقل فقط: يذبل، بل يصير حطامًا تتكسر أجزاؤه وتذروه الرياح. هذه خاتمة المشهد الذي بدأ بالإعجاب، أخضر يملأ العين، ثم أصفر يعلن الرحيل، ثم فتاتٌ لا يكاد المار يلتفت إليه. وهكذا الممتلكات والمظاهر والأجساد إذا نُظر إليها منفردةً عن العمل الباقي. القصور نفسها قد تصير أطلالًا، والأسماء التي ملأت عصرها قد تتحول إلى سطرٍ لا يقرؤه أحد، والأموال التي تنازع عليها الورثة تنتقل إلى ورثةٍ آخرين، ثم لا يبقى للإنسان إلا ما أرسله إلى أمامه.

إن كلمة ﴿حُطَامًا﴾ لا تدعو إلى كراهية الحياة، بل إلى كسر الوثن الذي صنعناه منها. لا تبنِ قلبك فيما سيصير حطامًا، وإن بنيت بيدك فيه؛ اجعل لك فيما تبنيه نيةً تعبر به إلى الله. فالبيت يصير حطامًا، لكن الرحمة التي سكنت فيه قد تبقى أجرًا؛ والكتاب يبلى ورقه، لكن الحق الذي علَّمه قد يستمر؛ والجسد يعود إلى التراب، لكن السجدة التي أداها محفوظة. الفناء يأكل الصورة، لا العمل الذي اتصل بوجه الله.

طريقان ينتظران وراء الحطام

بعد أن ينتهي مشهد الدنيا، تنفتح الآخرة على مصيرين: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾. لم يكن الحطام هو النهاية؛ وراءه حسابٌ يكشف ماذا فعل الإنسان في زمن الخضرة. مَن جعل الدنيا معبودًا، وظلم في سبيل زينتها، وباع الحق ليكثر، ينتظره عذابٌ شديد؛ ومَن عرفها أمانة، وأخطأ ثم تاب، وأنفق مما استخلفه الله فيه، ينتظره عفوٌ ورضا.

وقدَّم ذكر العذاب في السياق لأنه يحذر من الاغترار، ثم فتح باب المغفرة والرضوان كيلا تتحول رؤية الفناء إلى يأس. العبد الصالح لا يدخل الجنة لأنه عاش بلا نقص، بل لأن رحمة الله أدركته، ومغفرته سترت تقصيره، ورضوانه رفع عمله المحدود إلى مقام القبول. والمغفرة إزالةٌ لأثر الذنب، أما الرضوان فأعلى؛ ليس فقط أن يعفو الله عنك، بل أن يرضى عنك. أي غايةٍ يمكن أن تطلبها الروح بعد رضا خالقها؟ إن كل تصفيقٍ في الأرض يصير ضجيجًا فارغًا أمام كلمة رضا من الله.

ولم يقل: مغفرةٌ ورضوان فقط، بل ﴿مِنَ اللَّهِ﴾؛ ليأخذ الوعد جلاله من مصدره. المغفرة من الذي يعلم الذنب كله، لا من مخلوقٍ رأى بعضه؛ والرضوان من رب السماوات والأرض، لا من جمهورٍ متقلب. إذا غفر الله، فلا يضرك أن يذكّرك الناس بماضٍ تاب منه قلبك، وإذا رضي فلا تنقصك خصومة مَن لم يفهمك. ليس هذا ترخيصًا في ظلم الناس؛ فحقوقهم تُرد وتُستحل، لكن من صدق في توبته لا ينبغي أن يبقى عبدًا لنظرةٍ ترفض أن ترى تغيره.

ثم تصدر الخلاصة القاطعة: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾. المتاع شيءٌ يُنتفع به زمنًا ثم ينتهي؛ ليس شرًّا محضًا، لكنه محدود. والغرور هو أن يَعِدك المتاع بما لا يستطيع الوفاء به؛ يعدك بالأمان وهو زائل، وبالامتلاء وهو ناقص، وبالبقاء وهو يمضي بك إلى الموت. الدنيا صادقةٌ في أنها تمنحك لذةً مؤقتة، لكنها تصير غرورًا حين تقرأ المؤقت خالدًا، والوسيلة غاية، والمظهر جوهرًا.

المال ينفعك، لكنه لا يستطيع أن يمنحك حصانةً من الموت؛ والناس يحبونك، لكنهم لا يستطيعون أن يدخلوا قبرك معك؛ والصحة تحملك، لكنها لا توقع لك عهدًا بالبقاء؛ والشهرة توسع اسمك، لكنها لا توسع بالضرورة قلبك. كل متاعٍ في الدنيا يقول لك بحقيقته: استخدمني ولا تعبدني، اعبر بي ولا تتوقف عندي، اشكرني باعتباري نعمةً ولا تمنحني صفات الإله.

والغرور لا يكمن في الدنيا وحدها، بل في طريقة نظرنا إليها. الدنيا نفسها تعلن فناءها كل يوم: ورقةٌ تسقط، وشعرٌ يشيب، ووجهٌ يغيب، وبيتٌ ينتقل من مالكٍ إلى مالك. هي لا تكف عن إرسال رسائل الرحيل، لكن الإنسان هو الذي يمزق الرسائل ويبني وهم الدوام. ولو أصغى إلى تحولاتها لكانت واعظًا يعينه على الآخرة، بدل أن تكون حجابًا يقطعه عنها.

إن معرفة الدنيا كما وصفتها الآية تلد قلبًا متوازنًا: لا يزهد فيها زهد العاجز الذي يشتم ما لم يقدر عليه، ولا يغرق فيها غرق المفتون الذي لا يرى غيرها. يعمل كأنه مسؤولٌ عن إصلاح الأرض، ويتهيأ كأنه راحلٌ عنها غدًا؛ يحب بصدق، لكنه لا يؤلِّه مَن يحب؛ يملك المال، لكنه يترك فيه حقًّا للمحتاج؛ يفرح بالربيع، لكنه يستعد للاصفرار؛ وينظر إلى الحطام فلا ينهار، لأنه كان قد أرسل معنى حياته إلى الموضع الذي لا يصل إليه الفناء.

السباقُ الوحيد الذي لا يخسر فيه أحدٌ بتقدُّم غيره

تأملات في الآية الحادية والعشرين

يقول الله تعالى:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

بعد أن عرضت الآية السابقة سباق الدنيا في اللعب والزينة والتفاخر والتكاثر، تنقل السورة طاقة المنافسة في الإنسان إلى ميدانها الصحيح: ﴿سَابِقُوا﴾. لم تطلب منه أن يقتل رغبته في التقدم، بل أن يصحح وجهتها؛ فالإنسان مخلوقٌ وفيه توقٌ إلى السبق، لكنه قد يهدر هذا التوق في الوصول إلى ما سيتحول حطامًا. يتسابق الناس إلى مالٍ محدود، فإذا أخذ أحدهم نقص نصيب الآخرين، وإلى منصبٍ لا يتسع إلا لقليل، وإلى شهرةٍ تقوم على أن يتوارى غيرهم. أما السباق إلى الله فلا تضيق ساحته بتعدد الساعين، ولا ينقص نصيبك لأن أخاك سبقك، بل قد يعينك سبقه ويوقظ همتك.

﴿سَابِقُوا﴾ لا «سيروا» فحسب؛ لأن العمر قصير، والغاية عظيمة، والعوائق كثيرة. السائر على مهلٍ قد يسبقه الموت قبل أن يفرغ من تأجيله، أما المسابق فقد أدرك أن كل يومٍ لا يعود، وأن الفرصة ليست ممتدةً بلا نهاية. غير أن المسابقة لا تعني العجلة المضطربة التي تبدأ أعمالًا كثيرةً ثم تتركها، بل تعني المبادرة الصادقة، وألا تجعل بين معرفتك بالخير وفعله مسافةً يملؤها الهوى بالأعذار.

سابق إلى الصلاة قبل أن يثقل القلب، وإلى التوبة قبل أن يعتاد الذنب، وإلى رد المظلمة قبل أن يأتي يومٌ لا تملك فيه إلا الحسنات، وإلى الكلمة الطيبة قبل أن يغيب مَن تريد جبره، وإلى الإنفاق قبل أن يصير المال ميراثًا. إن أبواب الخير لها مواسم، ومن الحكمة أن تدخل حين يُفتح الباب؛ فقد تستطيع العمل اليوم ولا تستطيعه غدًا، وقد تجد في قلبك رقةً إن أهملتها عادت القسوة.

البداية بالمغفرة

والعجيب أن غاية السباق الأولى هي ﴿مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. لم يبدأ بالجنة، بل بالمغفرة؛ لأن الطريق إلى النعيم يمر أولًا بتطهير الإنسان مما أثقله. نحن لا ندخل على الله مزهوين بأعمالنا، بل نأتيه فقراء إلى عفوه، نحمل طاعاتٍ أصابها النقص، ونياتٍ خالطها ما خالطها، وأعمارًا لم تخلُ

من تفريط. والمغفرة ليست جائزة الضعفاء وحدهم، بل حاجة الأنبياء والصالحين وكل عبدٍ عرف جلال الله وعرف قصور نفسه.

وسبق المغفرة يعني أن المؤمن لا يتباطأ في الاعتراف، ولا يدافع عن ذنبه حتى يتصلب. إذا بان له الخطأ عاد، وإن كان الرجوع مؤلمًا لكبريائه. بعض الناس يسابقون إلى تبرئة صورهم، بينما المؤمن يسابق إلى تطهير قلبه؛ لا يهمه أن يبدو دائمًا مصيبًا بقدر ما يهمه أن يكون عند الله صادقًا. الاعتذار عنده ليس هزيمة، بل انتصارٌ على النفس التي تريد أن تحمي مكانتها ولو على حساب الحق.

والمغفرة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ من الذي ربّاكم بالنعم وعلم ضعفكم ولم يقطع عنكم طريق الرجوع. لفظ الربوبية هنا يسكب على التوبة دفئًا خاصًّا؛ أنت لا تعود إلى قاضٍ غريبٍ عنك، بل إلى ربٍّ خلقك ويعلم تركيبك، وأنعم عليك قبل أن تطيعه، وسترك وأنت تعصيه، ثم دعاك إلى أن تسابق نحو مغفرته. وما دام هو الذي دعا، فلا تقل: ذنبي أغلق الباب؛ لأن عظمة الذنب لا تُقاس بسعة رحمتك أنت، بل بسعة رحمته سبحانه.

جنةٌ تتضاءل أمامها خرائط العالم

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. الإنسان الذي كان يتكاثر في أمتار الأرض يُدعَى إلى جنةٍ يبلغ عرضها هذا الاتساع الذي يجاوز خياله. كان يتنازع على قطعةٍ صغيرة، ويظلم من أجل حدٍّ من حدود الملك، ويبيع آخرته مقابل مساحةٍ سيتركها، والله يدعوه إلى ملكٍ لا يضيق. إن ضيق الطمع لا يأتي من قلة ما وُعد به الإنسان، بل من قصر بصره؛ يرى العاجل الصغير ولا يرى الآجل العظيم، فيبيع السماء من أجل حفنة تراب.

وإذا كان هذا عرض الجنة، فما ظنك بطولها ونعيمها ودرجاتها؟ إن التعبير لا يريد أن يمنح العقل خريطةً هندسية، بل أن يفتح فيه معنى السعة التي لا تحيط بها مقاييسه. كل ما في الدنيا محدود: البيوت لها جدران، والأراضي لها حدود، واللذات يحيط بها الملل والخوف، أما الجنة فسعةٌ في المكان والزمان والروح. لا يضيق أهلها بعضهم ببعض، ولا يحتاج أحدهم أن يخسر كي يربح الآخر، ولا تُنتزع لذةٌ من يد صاحبها لتذهب إلى غيره.

وقد قال: ﴿أُعِدَّتْ﴾، فهي ليست وعدًا مجهولًا لم يُخلق بعد، بل دارٌ أعدها الله لعباده، وهيأ فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. الإعداد يدل على العناية، وكأن كل طاعةٍ تفعلها تسير بك إلى بيتٍ أعده لك الكريم، وكل شهوةٍ تتركها لله ليست حرمانًا، بل تأجيلٌ للذة إلى صورتها الأطهر والأبقى. المؤمن لا يعيش محرومًا حين يكف نفسه عن الحرام؛ إنه يرفض متاعًا مسمومًا لأنه يصدق أن له عند ربه مائدةً لا يعقبها ألم.

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾. الإيمان هو الباب الذي تدخل منه الأرواح إلى ذلك الاتساع؛ إيمانٌ يربط القلب بالله، ويتلقى عنه طريق رسله، ثم يصدق نفسه بالعمل. وليس الإيمان ثمنًا مساويًا للجنة؛ فكيف تكون أعوامٌ محدودة من الطاعة ثمنًا لخلودٍ لا ينتهي؟ إنما هو سببٌ جعله الله للدخول، ثم يتدارك العبد فضلُه ورحمتُه.

حين تسقط دعوى الاستحقاق

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. بعد الأمر بالمسابقة، حتى لا يظن السابق أن سرعته استغنت به عن فضل الله، ترده الآية إلى أصل النعمة. أنت تسابق، لكن القدرة على السباق من الله؛ تؤمن، لكن الذي حبب إليك الإيمان هو الله؛ تعمل، لكن الذي منحك الحياة والعقل والوقت هو الله؛ ثم تدخل الجنة لا باستقلال عملك، بل بفضل الله ورحمته. العمل واجب، لكنه لا يصنع على الله حقًّا يخرجه من مقام التفضل؛ فهو الذي أعطى العبد رأس المال، ثم قبل منه التجارة، ثم ضاعف له الربح.

وهذا الفهم يحمي المؤمن من مرضين متقابلين: العجب واليأس. إذا عمل، لم يُعجب؛ لأنه رأى التوفيق فضلًا. وإذا قصَّر ثم تاب، لم ييأس؛ لأنه يعلم أن النجاة لا تعتمد على كماله، بل على رحمة ربه مع صدق سعيه. العجب يجعلك تنظر إلى عملك وتنسى المنعم، واليأس يجعلك تنظر إلى ذنبك وتنسى الغفور؛ وكلاهما حجابٌ عن الله. أما العبودية فتنظر إلى التقصير فتستغفر، وإلى التوفيق فتحمد، وإلى المستقبل فتسأل الثبات.

﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ مشيئةٌ قائمةٌ على علمه وحكمته، لا عبث فيها ولا ظلم. والله أعلم بالقلوب الصادقة التي تطلبه، وبالنفوس التي تجاهد ضعفها، وبالعبد الذي أخطأ ألف مرةٍ لكنه في كل مرةٍ عاد منكسرًا. وقد يحرم الإنسان نفسه من الفضل حين يعرض ويستكبر، لا لأن خزائن الله ضاقت، بل لأنه أغلق وعاء قلبه؛ فالشمس تملأ الآفاق، لكن الغرفة التي أُحكم إغلاقها تبقى مظلمة.

ثم تختم الآية: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. هو صاحب الفضل كله، وفضله عظيمٌ في مبدئه ومنتهاه؛ خلقك من عدم، وهداك بين ضلالات كثيرة، وستر عيوبك، وأمهلك، وفتح لك باب التوبة، ودعاك إلى السباق، ثم أعد لك جنةً أوسع من السماء والأرض. ماذا قدم العبد من عند نفسه بعد كل هذا؟ ليس له إلا فقره، وحتى معرفته بفقره هداية.

من عرف أن الله ذو الفضل العظيم، لم يضق بنجاح الآخرين في طريق الخير؛ لأن خزائن الفضل لا تنقص بالعطاء. الحسد ينشأ من تصورٍ ضيق، كأن نصيب غيرك اقتُطع من نصيبك، أما الإيمان فيرى ربًّا واسع الفضل يعطي هذا ولا يحرم ذاك. وحين ترى إنسانًا

سبقك إلى خير، لا تجعله عدوًّا، بل دليلًا على أن الباب مفتوح؛ نافسه دون أن تتمنى زوال نعمته، واطلب من الله الذي أعطاه أن يعطيك.

وهكذا تستبدل السورة سباق التكاثر بسباق المغفرة، وضيق الممتلكات بسعة الجنة، ووهم الاستحقاق بوعي الفضل. في السباق الدنيوي يلتفت الإنسان إلى الناس ليعرف موقعه منهم، أما في السباق إلى الله فينظر إلى عيبه وطريقه وربه؛ يفرح بالسابقين لأنهم يوقظونه، ويعين المتأخرين لأن نجاحهم لا يزاحمه، ويعلم أنه مهما أسرع فلن يبلغ الجنة بقوته، وإنما يصل ساعيًا ثم تفتح له يد الفضل بابًا أعظم من كل ما عمل.

الكتابُ الذي سبق الدموع

تأملات في الآيات من الثانية والعشرين إلى الرابعة والعشرين

يقول الله تعالى:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

بعد أن كشفت السورة خفة الدنيا، ثم دعت إلى المسابقة نحو المغفرة والجنة، تدخل الآن إلى أعمق مواضع الاضطراب في النفس البشرية: موضع المصيبة، والفقد، والنعمة، وتقلب القلب بين حزنٍ يبتلعه وفرحٍ يطغيه. فالإنسان لا يُفتن بما يفوته وحده، بل بما يأتيه أيضًا؛ المصيبة قد تكسره حتى يعترض، والنعمة قد ترفعه في عيني نفسه حتى يختال، وكلا الحالين يكشفان مقدار معرفته بالله وبحقيقة القدر. تأتي هذه الآيات لا لتصنع قلبًا باردًا لا يحزن ولا يفرح، بل لتبني قلبًا متزنًا لا يستعبده الحزن ولا يطغيه الفرح؛ يتألم وهو مؤمن، ويُنعَم عليه وهو متواضع، ويظل في الحالين متصلًا باليد التي تعطي وتمنع بحكمة.

إن الإيمان بالقدر ليس فكرةً توضع في هامش العقيدة، بل قوةٌ تعيد تشكيل الوجدان كله. حين تستقر في القلب، لا تمنع نزول الدمع، لكنها تمنع الدمع من أن يتحول إلى سوء ظنٍّ بالله، ولا تلغي الفرح، لكنها تنقيه من الغرور. إنها تضع الحادثة المؤلمة داخل علمٍ أوسع منها، وترد النعمة إلى مصدرها قبل أن تنسبها النفس إلى استحقاقها. والمؤمن لا يزعم أنه يفهم كل سرٍّ في المقادير، لكنه يعرف أن ما لا يفهمه لم يقع خارج العلم والحكمة، وأن المشهد الذي يراه مبتورًا قد يكون جزءًا من قصةٍ لم تُكشف له بقيتها.

المصائب التي تقع في الأرض

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾. لفظ المصيبة مأخوذٌ من الإصابة، أي إنها وقعت في موضعها الذي قُدِّر لها، ولم تكن سهمًا شاردًا أخطأ طريقه في ملك الله. وما يقع في الأرض من جدبٍ وزلزالٍ ومرضٍ عام وحربٍ وخرابٍ وفقدٍ للأموال والثمرات، كله داخلٌ في علم الله وكتابه، لا يفجؤه حادث، ولا يجد في ملكه أمرٌ لم يكن معلومًا له. وهذا لا يعني أن البشر غير مسؤولين عما يصنعونه من ظلمٍ وإفساد؛ فالقدر لا يتحول إلى حجةٍ للمجرم، لأن الله أمره ونهاه وأعطاه إرادةً يُحاسب على استعمالها. لكن أفعال العباد نفسها لا تخرج عن سلطان الله وعلمه، وهو قادرٌ أن يجعل من شرورهم أبوابًا لحكمٍ وآثارٍ لا يحيطون بها.

إن المؤمن حين يرى المصائب الكبرى لا يقول إن الله غاب عن العالم، ولا يتصور أن الفوضى انتزعت زمام التاريخ من يده؛ يعلم أن الكون لم يخرج لحظةً من سلطان العزيز الحكيم. قد يرى الطغيان يرتفع، والضعفاء يُسحقون، والباطل يكتب عناوين المرحلة، لكن هذا كله لا يعني أن العدل الإلهي سقط، بل يعني أن فصول الحكاية لم تكتمل. إن الحكم على تدبير الله من مقطعٍ قصير يشبه الحكم على كتابٍ عظيم من صفحةٍ ممزقة؛ نحن نرى اللحظة، والله يعلم السلسلة كلها، ويرى ما ستلد الحادثة في الدنيا وما سينكشف من جزائها في الآخرة.

ومع الإيمان بالقدر، لا يقف المؤمن سلبيًّا أمام مصائب الأرض. إذا كان الجوع من ظلم البشر، قاوم الظلم وأطعم، وإذا كان المرض مما يمكن علاجه، طلب الدواء، وإذا كان الفساد نتيجة تقصيرٍ في السنن، أصلح وأخذ بالأسباب. القدر لا يأمره أن يجلس أمام النار ويقول: كُتبت، بل يأمره أن يطفئها، وإطفاؤه لها من القدر أيضًا. إن بعض الناس يستخدمون القدر لتبرير العجز بعد وقوع المصيبة، مع أن النبي ﷺ علَّم أمته العمل والأخذ بالأسباب، ثم الرضا بما ينتهي إليه الأمر بعد بذل الوسع.

الفرق دقيقٌ بين التسليم والاستسلام؛ التسليم أن يعمل الإنسان بما يستطيع، ثم لا ينازع الله فيما خرج عن قدرته، أما الاستسلام المذموم فهو أن يترك ما يستطيع فعله ثم يسمي كسله رضا. المؤمن يقاوم المرض بالدواء وقلبه مع الشافي، ويقاوم الظلم بما يملك وقلبه مع العدل، ويزرع في الأرض مع علمه أن الإنبات لله. إنه لا يعبد السبب ولا يهمله؛ يعطيه حجمه الصحيح بوصفه بابًا شرعه الله، لا قوةً مستقلةً عنه.

المصيبة التي تدخل النفس

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾. هنا تقترب الآية من الموضع الذي لا يستطيع الإنسان أن يهرب منه؛ فمصائب الأرض قد يراها من بعيد، أما مصيبة النفس فتدخل عليه في جسده أو قلبه أو أحبته. مرضٌ يغيّر علاقته بأيامه، وفقدٌ ينتزع من البيت صوتًا أَلِفه، وخيبةٌ تسقط

مشروعًا عاش له، وجراحٌ لا يراها الناس لكنها تسكن في داخله. لكل إنسانٍ أرضٌ خارجية تقع فيها الأحداث، وعالمٌ داخلي تعبر فيه آثارها، وقد تكون المصيبة الواحدة هينةً على شخصٍ ثقيلةً على آخر؛ لأن الوجع لا يُقاس بحجم الواقعة وحدها، بل بموضعها من الروح.

والقرآن لا يحتقر الألم الشخصي بحجة وجود آلامٍ أكبر في العالم. قد يكون ما أصابك صغيرًا في نظر الآخرين، لكنه في نفسك زلزالٌ كامل، والله الذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها يعلم أيضًا ما يلج في صدرك. لا تحتاج إلى تضخيم جرحك كي يكون معلومًا عنده، ولا إلى شرحٍ بليغ حتى يفهمك؛ هو أقرب إلى حقيقة الألم من العبارة التي تحاول وصفه. وقد يعجز أقرب الناس عن إدراك سبب استمرار حزنك، لكن الله يعلم الخيط الذي ربط تلك الخسارة بأعمق موضعٍ فيك.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ تشمل ما نعرف أسبابه وما لا نعرف، وما نستطيع تفسيره وما يبقى لغزًا في قلوبنا. وبعض الجراح يؤلم مرتين: مرةً لأنه وقع، ومرةً لأننا لا نفهم لماذا وقع.

والإيمان بالكتاب السابق لا يجيب دائمًا عن سؤال «لماذا» في تفاصيله، لكنه يجيب عن سؤالٍ أعمق: هل وقع هذا عبثًا وخارج العلم؟ والجواب: لا. قد تبقى الحكمة مستورة، لكن الحادثة ليست متروكةً للفوضى. وهذه المعرفة لا تزيل كل ألم، لكنها تمنح الألم سقفًا يحميه من التحول إلى عبثٍ قاتل.

قبل أن نبرأها

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾. كل ما يقع مكتوبٌ في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله الأنفس والمصائب والأرض التي تجري عليها. الكتابة أثرٌ من آثار العلم الإلهي المحيط، لا لأن الله يحتاج إلى كتابٍ يذكّره، تعالى الله عن ذلك، بل إظهارًا لإحاطة التقدير وضبطه. لم تبدأ القصة حين رأيت الحادثة، ولم يدخل علم الله بها حين وصل إليك الخبر؛ كانت معلومةً له قبل أن تكون أنت، ومقدرةً في نظامٍ لا يضل ربي فيه ولا ينسى.

كم تمنح هذه الحقيقة القلب من سكينةٍ إذا دخلها على وجهها الصحيح! المصيبة التي فاجأتك لم تفاجئ ربك، والطريق الذي انقطع أمامك لم يظهر فجأةً خارج حكمته، والشخص الذي فارقك في توقيتٍ ظننته مستحيلًا كان أجله معلومًا قبل أن تلتقيه. أنت عرفت النهاية متأخرًا، أما الله فكان يعلم البداية والنهاية وما بينهما، وأودع في أيام اللقاء من المعاني ما أراد، ثم رد الوديعة في وقتها.

لكن بعض النفوس تسيء فهم الكتابة فتظنها دعوةً إلى ترك الاختيار والعمل. مع أن الذي كتب المقادير هو الذي أمر ونهى، وجعل للأعمال نتائج، وربط الثمار بالأسباب، وجعل الدعاء والصدقة والتداوي كلها من قدره. أنت لا تعرف ما كُتب لك حتى يقع؛ ولذلك

واجبك أن تعمل بما شرع الله وما تقدر عليه، لا أن تتكئ على كتابٍ غائبٍ عنك لتبرر التقصير. الزارع لا يقول: إن كان قد كُتب لي محصولٌ فسيأتيني بلا زرع، بل يزرع لأن السنن التي أُمر بها جزءٌ من الكتاب.

إن الإيمان بالقدر يُستعمل بعد بذل الأسباب سكينةً، لا قبلها ذريعةً. حين تختار بين الخير والشر لا تقل: كلاهما مكتوب، لأنك تشعر بإرادتك وتسمع التكليف، وستُحاسب على اختيارك. فإذا بذلت جهدك في الخير ثم جاءت النتيجة على غير ما أردت، قلت: قدَّر الله وما شاء فعل، لا احتجاجًا على العمل، بل حمايةً للقلب من أن تأكله «لو». هذه الكلمة الصغيرة قد تفتح على الإنسان أبوابًا من الحزن لا تنتهي: لو أنني فعلت، لو أنني لم أذهب، لو تأخرت دقيقة، لو اخترت الطريق الآخر. وبعض «لو» مفيدٌ للتعلم وتصحيح المستقبل، لكن بعضها يتحول إلى محاولةٍ مستحيلة لإعادة كتابة الماضي، فيستنزف الحاضر دون أن يغير ما وقع.

اليسير على القدرة المطلقة

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. كتابة ما سيكون قبل وجوده، والعلم بكل مصيبةٍ تقع في الأرض وكل ألمٍ يمر بالنفوس، أمرٌ يسيرٌ على الله؛ لأن علمه لا تحده كثرة المعلومات، ولا تختلط عليه الأصوات، ولا يشغله شأنٌ عن شأن. نحن إذا كثرت علينا التفاصيل عجزنا، وإذا ازدحمت الحكايات نسينا، ونقيس الغيب على ضعفنا، فتأتي الآية لتردنا إلى تنزيه الله عن حدود المخلوق. علمه بكل قطرة دمٍ ودمعة عينٍ وحركة قلب، كعلمه بمسارات النجوم واتساع السماوات، لا يخفى عليه شيء ولا يرهقه حفظ شيء.

وفي قوله ﴿يَسِيرٌ﴾ عزاءٌ خفي: كما أن كتابة المصائب وعلمها يسير، فإن كشفها وتبديل الأحوال وجبر المكسور يسير عليه سبحانه. ما يبدو في عينك عقدةً لا تُحل، وما تعجز قوى الأرض عن إصلاحه، لا يثقل على قدرة الله. قد لا يأتي الفرج بالصورة التي رسمتها، لكن خزائن الاحتمالات عند الله لا تنحصر في خيالك. إن عجزك عن تصور المخرج لا يعني أن المخرج غير موجود، بل يعني أن عقلك وقف عند حدوده.

لئلا يأكلكم الحزن

ثم يكشف الله الثمرة التربوية للعلم بالقدر: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾. الأسى حزنٌ عميق على الفائت، والآية لا تنهى عن أصل الحزن الفطري؛ فقد حزن الأنبياء، وبكى رسول الله ﷺ عند الفقد، وقال ما يرضي ربه. إنما تمنع الحزن الذي يبتلع صاحبه، ويحوِّل الفائت إلى مركز الحياة كله، ويجعله يعترض على ربه أو يعطِّل ما بقي من رسالته. الدمع لا يناقض الرضا، والوجع لا يعني ضعف اليقين؛ قد يرضى القلب بالقدر بينما تتألم طبيعته البشرية، كما تحترق العين بالدخان مع علمها بسبب الاحتراق.

الإيمان لا يحوّل الإنسان إلى حجر، بل إن القلب المؤمن قد يكون أرقَّ وأشد شعورًا، لكنه يجد في الله سعةً يحمل إليها وجعه. الفرق ليس أن المؤمن لا يتألم، بل أنه لا يتألم وحده؛ يصحب ألمه معنى العبودية، ويراه داخل تدبير الله، ويعلم أن ما عنده خيرٌ وأبقى. الحزن عنده زائرٌ له حرمة، لكنه لا يسمح له أن يصير مالك البيت.

﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾، وما أكثر ما يفوت الإنسان: فرصةٌ ظنها بداية مستقبله، وشخصٌ حسب أنه سيكمل معه الطريق، ومالٌ جمعه ثم ضاع، وصحةٌ لم يعرف قيمتها حتى ضعفت، وأعوامٌ يتمنى لو عاد إليها. الفوات جزءٌ من طبيعة الدنيا؛ لا يمكن أن تمسك بكل شيء، وكل اختيارٍ يعني ترك طرقٍ أخرى، وكل وصولٍ يحمل في داخله وداعًا لما سبقه. ومن أراد دنيا بلا فوات طلب منها ما لم تُخلق له.

وبعض ما يفوتك لا تعرف الرحمة المختبئة في فواته. قد تحزن على بابٍ أُغلق، ولو فُتح لأدخل عليك ما لا تحتمل؛ وقد تتألم من شخصٍ غادر، وكان بقاؤه سيمنع عنك نضجًا أو طريقًا؛ وقد تفقد مالًا فيحفظ الله بفقده قلبك أو دينك. ليس كل فائتٍ شرًّا، كما أن ليس كل آتٍ خيرًا. نحن نقيس الأشياء بلحظة حضورها، والله يعلم سلاسل آثارها.

ولا يعني ذلك أن كل فقدٍ تظهر حكمته في الدنيا؛ فقد يموت الإنسان وفي قلبه سؤالٌ لم يجد له جوابًا. لكن المؤمن لا يشترط أن يرى الحكمة حتى يثق بالحكيم. بعض الإجابات مؤجلةٌ إلى يوم تنكشف فيه السرائر وتُعرض القصة كاملة، وحينها قد يرى العبد في موضع الدمع رحمةً كان يجهل اسمها. الإيمان بالغيب قبولٌ بأن الحقيقة أوسع مما تراه العين الآن.

والأسى المذموم يربط قيمة الإنسان بما فاته؛ يظن أنه انتهى لأن حلمًا انتهى، أو أنه صار أقل لأن شخصًا رفضه، أو أن حياته فقدت معناها لأن طريقًا أُغلق. لكن قيمتك لا تأتي من الشيء الذي فاتك، تأتي من عبوديتك لله ومن قدرتك على أن تحمل ما بقي فيك من أمانة. قد ينتهي فصلٌ دون أن ينتهي الكتاب، وقد تسقط خطةٌ لتنكشف رسالةٌ أعمق لم تكن تراها وأنت مشغولٌ بها.

ولا يطغيكم ما أتاكم

وفي الجهة الأخرى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. ليس المراد منع الفرح بالنعمة؛ فالقرآن يأمر بالفرح بفضل الله ورحمته، والنبي ﷺ كان يفرح بما يسر. إنما المراد الفرح المختال البطر الذي ينسب النعمة إلى الذات، وينسى المنعم، ويرى في العطاء شهادةً على تفوق صاحبه. ولهذا تعقبه الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

الفرق بين فرح الشكر وفرح الغرور أن الأول يرفع العين إلى الواهب، والثاني يثبتها على النفس. الشاكر يقول: هذا من فضل ربي، فيزداد تواضعًا وإحسانًا، والمغرور يقول في أعماقه:

حصلت عليه لأنني أذكى وأحق، فيزداد استعلاءً ومنعًا. النعمة نفسها قد تقرب إنسانًا إلى الله وتبعد آخر، ليست المسألة فيما جاء، بل في القلب الذي استقبله.

وقد جمع الله بين الفائت والآتي ليحرر القلب من التأرجح العنيف بينهما. من ظن أن الأشياء تملك سعادته بذاتها، ارتفع معها وسقط معها؛ إذا جاءت طار فرحًا، وإذا ذهبت هوى يأسًا. أما من علم أنها تجري بقدر، ظل له في العمق قرارٌ ثابت: يشكر في العطاء، ويصبر في المنع، ويعلم أن الله لم يتغير حين تغيرت الأحوال. هذا الثبات ليس بلادةً، بل رسوخٌ في مركزٍ لا تصل إليه العواصف.

وتأمل التعبير: ﴿مَا آتَاكُمْ﴾؛ لم يقل: ما كسبتم، مع أن الإنسان يسعى ويعمل، ليذكره بأن نتيجة السعي عطاء. كم من إنسانٍ بذل الأسباب نفسها ولم يصل، وكم من عقلٍ لامعٍ لم تتح له الفرصة، وكم من قويٍّ عجز أمام حادثٍ صغير! إن اعترافك بأن ما عندك آتاك الله إياه لا يلغي جهدك، لكنه يضع جهدك داخل شبكةٍ من النعم لم تصنعها: العقل الذي خططت به، والجسد الذي عملت به، والزمان والمكان والفرصة والأشخاص الذين فتحوا لك الأبواب.

من عرف أن النعمة إيتاءٌ من الله، لم يحتقر مَن حُرمها، ولم يقل للضعيف: لو كنت مثلي لفعلت. يدرك أن الفروق بين الناس ليست كلها صناعة استحقاقاتهم، وأن عليه أن يستخدم ما أوتي في رفع غيره لا في إذلاله. وكلما عظمت النعمة عظمت الأمانة، لا حق الاختيال.

المختال: من انتفخت صورته في داخله

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. الاختيال حالةٌ داخلية يمشي فيها الإنسان وقد تضخمت صورته في نفسه، فيرى أنه أكبر من حجمه، وأن ما أوتيه يرفعه في جوهره فوق الآخرين. وقد يظهر ذلك في مشيته ونبرته، وقد يختبئ تحت تواضعٍ مصطنع؛ يتواضع بلسانه وهو ينتظر أن يقال له: ما أشد تواضعك. والاختيال الخفي أشد مكرًا؛ لأنه يستعمل فضيلة التواضع نفسها ليغذي الكبر.

ولا يحب الله المختال، لأن الاختيال كذبٌ على حقيقة العبودية. كيف يختال مَن بدأ من نطفة، ويحمل في جوفه ضعفه، ولا يملك أن يضمن نبضته التالية، وسينتهي جسده إلى تراب؟ وكيف يفخر بما هو وديعةٌ في يده؟ لو أبصر الإنسان نفسه بين البداية والنهاية، لرأى كل كبرٍ مشهدًا عبثيًّا؛ ذرةٌ من تراب تتعالى داخل ملك الله بما أعطاها الله.

والفخور لا يكفيه أن يعظم نفسه في داخله، بل يحتاج إلى أن يعلن مزاياه ويعددها أمام الآخرين. يختال في نفسه، ثم يفخر بلسانه؛ فالداخل المتضخم يبحث دائمًا عن منصة. وليس كل ذكرٍ للنعمة فخرًا؛ قد يحدث الإنسان بنعمة ربه شكرًا، أو يذكر خبرته لمصلحة، لكن

الفارق في النية والأثر: أيريد أن يدل على المنعم أم أن يجعل أنظار الخلق عنده؟ أيذكر ما عنده ليخدم أم ليصغر مَن أمامه؟

وقد يكون الفخر جماعيًّا، تفخر أمةٌ أو قبيلةٌ أو جماعةٌ بتاريخها حتى تجعل أمجاد السابقين عذرًا لكسل الحاضرين. تتحول المنجزات القديمة إلى مخدرٍ يمنع النقد والعمل، ويحسب اللاحقون أنهم ورثوا فضل الأوائل بمجرد الاسم. لكن الله لا يحاسب الإنسان على لافتته، ولا ينفعه نسبٌ بلا عمل. التكريم الحقيقي للسابقين أن تحمل قيمهم وتكمل طريقهم، لا أن تستخدم أسماءهم لتغطية ضعفك.

من الاختيال إلى البخل

ثم تكشف الآية التالية الثمرة الاجتماعية للكبر: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾. المختال يرى النعمة دليلًا على تفوقه، ولذلك يصعب عليه أن يشاركها؛ يظن أن المحتاج أقل استحقاقًا، وأن ما في يده ثمرة خالصة لفضله. وهكذا يتحول الخلل العقدي في فهم القدر والنعمة إلى بخلٍ يضر الناس. ولو علم أنها إيتاءٌ من الله واستخلاف، لرأى في العطاء أداء أمانة، لا انتقاصًا من ملكه.

البخل ليس مجرد الامتناع عن المال، بل انكماش الروح حول ذاتها. قد يبخل الإنسان بالوقت، والعلم، والشفاعة الحسنة، والكلمة الطيبة، والاعتراف بفضل الآخرين. ورب غنيٍّ كريم المال بخيل الثناء، لا يستطيع أن يقر بجمال عملٍ صنعه غيره؛ لأن كل فضيلةٍ يراها في الآخرين يشعر أنها تنتقص من صورته. والبخل بالإنصاف من أقبح ألوان البخل؛ أن تعرف الحق لخصمك ثم تمنعه إياه لأن نفسك لا تحتمل أن يرتفع في موضع.

والبخيل في الحقيقة خائف؛ وراء قبضته اعتقادٌ بأن العطاء سيكشفه للعدم، وأن ما خرج لن يعود. قد يملك الكثير، لكن روحه تعيش في عقلية الفاقة، تحرس الموجود كأنه اللقمة الأخيرة. ولذلك لا يعالج البخل بكثرة المال، فقد تزيده الكثرة؛ وإنما يعالج باليقين في الرزاق، وبفهم الاستخلاف، وبالتدرب على العطاء حتى تكتشف النفس أنها لم تمت حين فتحت يدها.

حين يتحول الداء الشخصي إلى ثقافة

ولا يكتفي هؤلاء بالبخل: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾. البخيل قد يشعر في أعماقه بقبح موقفه، فيبحث عن جماعةٍ تشبهه حتى يتحول عيبه إلى رأيٍ محترم. لا يقول: أنا أخاف العطاء، بل يصنع للبخل فلسفة: الناس لا يستحقون، والمحتاجون كسالى، والكرم سذاجة، وكل إنسان مسؤولٌ عن نفسه. قد توجد حالاتٌ تحتاج إلى حكمةٍ في العطاء، وقد يسيء بعض الناس استعمال المساعدة، لكن البخيل يعمم الاستثناءات كي يغلق باب الرحمة كله.

إن الخطيئة حين تبقى شخصيةً تظل محاصرةً بضمير صاحبها، فإذا دعا إليها غيره تحولت إلى مشروع إفساد. ولذلك كان الأمر بالبخل أشد؛ لا يكتفي صاحبه بأن يطفئ مصباحه، بل يمر على مصابيح الآخرين لينفخ فيها. وقد يحسد الكريم على محبة الناس له، فيتهم عطاؤه بالرياء لا بناءً على بينة، بل ليحمي نفسه من المقارنة. كم من فضيلةٍ شُوِّهت لأن العاجزين عنها أرادوا أن يستريحوا من وخزها!

والأمر بالبخل قد يصدر في الأسرة حين يربي الأب أبناءه على أن كل ما يملكون حقٌّ خاص، فلا يرون للعامل والجار والفقير نصيبًا من الرحمة، وقد يصير سياسةً اقتصاديةً حين تُقاس قيمة البشر بما ينتجون فقط، ويُترك الضعفاء لأنهم لا يضيفون رقمًا إلى الأرباح، وقد يصير خطابًا ثقافيًّا يسخر من التضحية ويصف كل بذلٍ بالغباء. وهكذا ينتقل البخل من قبضة يدٍ إلى بنية مجتمع.

الله الغني عن الجميع

ثم يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. مَن يعرض عن الإيمان والإنفاق والشكر لا يضر الله، ولا ينقص من خزائنه شيئًا. إنما يحرم نفسه من مقام العبودية ومن أجر العطاء. الله هو الغني غنىً مطلقًا؛ لا يحتاج إلى أموال العباد ولا طاعاتهم ولا تسبيحهم، وقد سبَّح له الكون قبل أن توجد ألسنتهم. وحين يأمرهم بالإنفاق، فإنما يريد أن يطهرهم، وأن تصل رحمته إلى بعضهم على أيدي بعض.

﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾؛ جاء الضمير لتوكيد اختصاص الغنى الكامل به. كل مخلوقٍ فقيرٌ مهما ملك؛ الغني يحتاج إلى الهواء والماء والنوم، وإلى قلبٍ ينبض دون إرادته، وإلى أمنٍ لا يصنعه ماله وحده. وقد يكون أكثر فقرًا من المحتاج إذا صار بقاؤه النفسي معلقًا بما في خزانته. أما الله فلا يفتقر إلى شيء، وكل شيءٍ مفتقرٌ إليه؛ يعطي دون أن تنقص خزائنه، ويطعم ولا يُطعَم، ويجير ولا يُجار عليه.

وهو ﴿الْحَمِيدُ﴾؛ المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله، الغني الذي لا يحوله غناه إلى إهمال خلقه، بل يفيض عليهم بالنعم. يجتمع الغنى والحمد كما اجتمعت العزة والحكمة في أول السورة؛ فغناه كاملٌ وإحسانه شامل، لا يعطي لحاجةٍ إلى مقابل، ولا يمنع عجزًا عن العطاء. وإذا حمده العباد، فحمدهم نفعٌ لهم لا زيادةٌ في كماله؛ هو محمودٌ قبل أن يحمدوه، كما كان عظيمًا قبل أن يعرفوه.

والعبد حين يدرك غنى الله يستحي أن يمنَّ بطاعته. لا يقول في أعماقه: لقد قدمت للدين كثيرًا، كأن الدين قام به، بل يرى أن الله شرَّفه بأن استعمله. لو تولى، لاستبدله الله بغيره،

وبقي الحق قائمًا. العمل لله نعمةٌ على العامل، لا فضلٌ منه على الله؛ ومن فهم هذا ظل خائفًا أن يُحرم الخدمة، شاكرًا أن فُتح له بابها.

وحين يدرك أن الله حميد، يطمئن إلى أن تقديره محمودٌ وإن لم يفهمه. يحمده في النعمة حمد شكر، ويحمده في المصيبة حمد تسليمٍ وثقة؛ لا لأنه يستلذ الألم، بل لأنه يعرف أن رب الألم حكيمٌ رحيم، وأن المصيبة لم تخرج عن كتابه. وهكذا تعود نهاية المقطع إلى بدايته: ما أتاك وما فاتك كلاهما في علم الغني الحميد، فلا يقتلك الفقد، ولا يفسدك العطاء.

تريد هذه الآيات أن تبني قلبًا يمشي بين تقلبات الحياة دون أن تتخطفه: إذا فقد، بكى دون أن يعترض؛ وإذا أوتي، فرح دون أن يختال؛ وإذا ملك، أعطى دون أن يمن؛ وإذا عمل، شكر الله أن استعمله. قلبٌ يعرف أن المصيبة مكتوبة، لكن سعيه مطلوب، وأن النعمة مقدرة، لكن حسابها قادم، وأن الخلق كلهم فقراء، وأن الله وحده هو الغني الحميد. في هذا الوعي تتحرر النفس من «لو» التي تأكل الماضي، ومن «أنا» التي تفسد الحاضر، ومن الخوف الذي يغلق اليد عن مستقبلٍ خزائنه عند الله.

الكتابُ والميزانُ والحديد

تأملات في الآية الخامسة والعشرين

يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

نصل هنا إلى الآية التي تحمل السورة اسمها، وكأن كل ما سبق كان يهيئ القلب لفهم هذا اللقاء العجيب بين الوحي والعدل والقوة: البيّنات التي تكشف الحقيقة، والكتاب الذي يحدد الطريق، والميزان الذي يقيم القسط، والحديد الذي يحمي ما لا تحميه الكلمات وحدها. ليست هذه مفرداتٍ متجاورةً بلا نظام، بل بناءٌ كامل لحياة الإنسان والمجتمع؛ فالعقل يحتاج إلى البرهان، والروح تحتاج إلى الوحي، والعلاقات تحتاج إلى ميزان، والعدل يحتاج إلى قوةٍ تحرسه من الذين لا تردعهم الموعظة.

واللافت أن السورة التي حذرت من قسوة القلوب تسمي نفسها باسم الحديد، كأنها تضع أمامنا مفارقةً دقيقة: ليس المطلوب أن تكون القلوب حديدًا، بل أن يكون الحديد في يد قلبٍ خاشع. إذا دخل الحديد إلى القلب صار قسوةً وطغيانًا، وإذا بقي في اليد منضبطًا بالكتاب والميزان صار قوةً تحمي المستضعفين وتقيم القسط. المشكلة ليست في القوة ذاتها، بل في الموضع الذي تسكنه والمرجع الذي يقودها؛ فقوةٌ بلا وحي وحشٌ مسلح، ووحيٌ لا يحد من يحمي حقه قد يبقى محاصرًا بأنياب الذين لا يعترفون إلا بمنطق البطش.

الرسل: يدُ الرحمة الممتدة إلى حيرة الإنسان

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾. اللام و«قد» تحملان توكيدًا يثبت الحقيقة: أن الله لم يترك الإنسان في ظلمة التخمين، بل أرسل إليه رسله. والإرسال ذاته رحمة؛ فالخالق الغني عن العالمين تفضَّل بأن خاطب خلقه، وعرَّفهم بنفسه، ودلهم على ما يصلحهم، وأقام لهم من بني جنسهم قدواتٍ تمشي الرسالة في حياتهم. كان يمكن للإنسان أن يظل أسير عقله المحدود، يتردد بين الآلهة المصنوعة والأهواء المتعارضة، لكن الله فتح له من السماء باب الخبر الصادق.

والرسل ﴿رُسُلَنَا﴾؛ إضافتهم إلى الله تشريفٌ لهم وتثبيتٌ لمصدر رسالتهم. لم يخرجوا بمشروعاتٍ ذاتية طلبًا للسيادة، ولم يخترعوا لأنفسهم طريقًا ثم نسبوه إلى السماء، بل كانوا أمناء على كلمةٍ

تلقوها، يبلغونها ولو عارضت مصالح أقوامهم وأهواءهم. سرُّ قوتهم أنهم لم يكونوا يفاوضون الناس على رأيٍ شخصي، بل يحملون أمانةً لا يملكون كتمانها أو تبديلها.

وقد كان الرسل بشرًا يأكلون ويمشون في الأسواق، كيلا يبقى الوحي فكرةً معلقةً فوق طاقة الإنسان. لو جاءت الرسالة في صورةٍ لا تعرف الجوع والخوف والفقد، لقال الناس: كيف نقتدي بمن لم يمر بما نمر به؟ فجاء الأنبياء من قلب التجربة البشرية؛ أحبوا وتألموا، وهاجروا وحُوصروا، ودعوا فاستُجيب لهم وتأخر عنهم بعض ما أرادوا، لكنهم ظلوا أوفى الناس لله. في سيرتهم نرى أن الربانية لا تلغي البشرية، بل تهذبها وترفعها؛ وأن الخشوع لا يعني انعدام القوة، وأن الرحمة لا تعني التفريط في الحق.

وإرسال الرسل يقرر أن الإنسان لا يستغني بعقله وحده عن الوحي. العقل نورٌ عظيم وهبةٌ إلهية، به يُفهم الخطاب وتُعرف الدلالة، لكنه لا يستطيع استقلالًا أن يخبرنا بتفاصيل الغيب، ولا أن يحدد مراد الله من عباده، ولا أن يبني وحده ميزانًا أخلاقيًّا محصنًا من تحكم الأهواء. فقد استخدمت عقولٌ لامعة ذكاءها في تبرير الاستعباد والقتل، وصاغت للظلم نظرياتٍ كاملة؛ لأن العقل حين ينفصل عن الهداية قد يتحول من قاضٍ على الهوى إلى محامٍ بارعٍ عنه.

والوحي لا يأتي ليطفئ العقل، بل ليضع المصباح في يده ويخرجه من الدوران داخل نفسه. البيِّنات تخاطب العقل، والكتاب يدعوه إلى التدبر، والميزان يطلب منه أن يقيس وينصف. ليست العلاقة بين العقل والوحي صراعًا بين نورين، بل الوحي نورٌ من الخالق يهدي العقل المخلوق إلى مجاله وحدوده، والعقل الصادق يعرف أن اعترافه بحدوده ليس إهانةً له، بل ذروة حكمته.

البيِّنات: الحق لا يخشى السؤال الصادق

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أرسل الرسل ومعهم الدلائل الواضحة التي تبين صدقهم وتكشف الحق. فالرسالة لا تقوم على مطالبة الإنسان أن يعطل بصيرته، ولا على قفزةٍ عمياء في مجهول، بل على آياتٍ تخاطب الفطرة والعقل، وعلى معجزاتٍ يؤيد الله بها رسله، وعلى صدقٍ يظهر في سيرهم، وعلى نظمٍ من المعنى يفسر الوجود والإنسان والمصير.

والبيِّنة هي ما يفصل بين الأشياء ويخرجها من الالتباس؛ فما أشد حاجة الإنسان إلى البيان في عالمٍ تختلط فيه الأسماء! قد يسمى الاستبداد أمنًا، والجبن حكمة، والظلم مصلحةً عامة، وعبادة الهوى حرية. وتأتي بينات الوحي لتعيد إلى الأشياء أسماءها الحقيقية، فلا تترك للباطل فرصة النجاة بمجرد تغيير اللافتة. إن أول وظائف الرسالة تحرير اللغة من تلاعب القوة؛ لأن مَن ملك تسمية الأشياء استطاع أن يوجه وعي الناس بها.

لكن وضوح البيّنة لا يعني أن كل إنسانٍ سيؤمن؛ فقد تكون الحقيقة واضحةً ويمنع الكبر صاحبها من الخضوع. ليست كل مشكلةٍ فكريةً تُحل بمزيد من الأدلة، فبعضها أخلاقية الجذر: يعرف المرء ثم يرفض لأن الاعتراف سيكلفه منصباً أو شهوةً أو صورةً بناها عن نفسه. والقرآن لا يحمّل الدليل مسؤولية عينٍ أغمضها صاحبها عمدًا؛ الشمس واضحة، لكن مَن أغلق نافذته لا يصح أن يحتج بظلمة غرفته على غيابها.

والحق لا يخاف السؤال الذي يطلب الهداية؛ فالرسل جاؤوا بالبينات، والوحي دعا إلى النظر والتعقل. لكن بين السؤال الصادق والسؤال المتعنت مسافة؛ الأول مستعدٌ لأن يتغير إذا ظهر له الجواب، والثاني يريد أن يبقى حيث هو، فيصنع من السؤال حصنًا ضد النتيجة. الصادق يقول: أرني لأتبع، والمتعنت يقول: لن أتبع مهما رأيت، لكنه يستمر في تبديل صيغة اعتراضه ليحافظ على مظهر الباحث.

وفي النفس أيضًا مناطق تحتاج إلى بينات؛ فقد يكذب الإنسان على ذاته حتى يختلط عليه دافعه الحقيقي. يحتاج إلى نور الوحي كي يميز بين خوف الله والخوف على الصورة، وبين الغضب للحق والغضب للنفس، وبين النصيحة وحب السيطرة. ليست البيّنة فقط حجةً تقام على الكافر، بل ضوءٌ يحتاج إليه المؤمن في متاهات باطنه.

الكتاب: ذاكرةُ الحق التي لا ينبغي للأهواء أن تمحوها

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾. الكتاب هو الوحي الذي يحمل هداية الله وشرعه وميزانه، وقد أنزله سبحانه كيلا تبقى الحقيقة معلقةً بذاكرة بشرٍ ينسون أو أهواء جماعاتٍ تبدل. الكتاب عهدٌ مكتوبٌ يواجه الزمن؛ كلما حاولت الأجيال أن تعيد تشكيل الدين وفق رغباتها، أعادها النص إلى الأصل، وكلما انحرف الواقع وقف الوحي شاهدًا لا يذوب فيه.

والكتاب «معهم»؛ فالرسل لا ينفصلون عن الوحي الذي حملوه، ولا يجوز أن يُفصل الكتاب عن بيانهم العملي له. الرسول ﷺ لم يكن ساعي بريدٍ يسلّم نصًّا ثم ينتهي دوره، بل كان المبيّن والمعلّم والقدوة، تجسد في عبادته وعدله ورحمته معنى الكتاب. ومن أراد كتابًا بلا رسول، فقد أراد نصًّا بلا مفتاحه البشري الذي اختاره الله، وقد يفتح بذلك الباب لهواه كي يقرأ ما يشاء.

وإنزال الكتاب يعني أن مرجعية الإنسان العليا لا تنبت من الأرض وحدها؛ فالأرض محكومةٌ بتقلب المصالح، والمنتصر فيها قد يكتب القانون الذي يحمي انتصاره، والأكثرية قد تمنح ظلمها اسم الشرعية. أما الكتاب فيأتي من فوق الأهواء المتصارعة ليقول للمالك والفقير، والحاكم والمحكوم، والقوي والضعيف: أنتم جميعًا عبادٌ تحت ميزانٍ واحد.

ليس شرف الأمة أن يكون لديها كتابٌ تتبرك بألفاظه فقط، بل أن تسمح له أن يحكم تصوراتها وأخلاقها. قد يوضع المصحف في أرفع مكانٍ من البيت، بينما يُقصى حكمه عن

أعمق مكانٍ في النفس. يقرأ المرء آيات العدل ثم يظلم، وآيات الأخوة ثم يتعصب، وآيات التواضع ثم يستعلي بعلمه بالكتاب على غيره. هذا لونٌ من هجر الكتاب: أن يكون حاضرًا في الصوت غائبًا عن الميزان.

والكتاب ليس خصمًا للحياة، بل دليل بنائها. لم ينزل ليحبس الإنسان في زاويةٍ معزولة عن الأرض، وإنما ليقيم به القسط بين الناس، وليصحح حركة المال والقوة والعلاقات. كل قراءةٍ تفصل القرآن عن سؤال العدل في الواقع قراءةٌ مبتورة، كما أن كل دعوةٍ إلى عدلٍ تقطع نفسها عن هداية الخالق معرضةٌ لأن تتحول إلى ظلمٍ جديد باسم الإنسان.

الميزان: ألا يميل الحق مع اليد الأقوى

﴿وَالْمِيزَانَ﴾. الميزان هو معيار العدل الذي تُعرف به الحقوق وتُوضع الأشياء في مواضعها. ويمكن أن يشمل ما أنزله الله من شرائع العدل، وما ألهم عباده من أدوات الوزن الحسي والمعنوي التي تقوم بها المعاملات. والميزان صورةٌ بديعة؛ له كفتان، ولا يستقيم إلا إذا تحرر من ضغط اليد التي تريد أن تميله. وهكذا العدل: لا يكون عدلًا إذا تغير باختلاف الأشخاص، أو ثقل الحق حين يكون لك وخف حين يكون عليك.

إن الإنسان يحب العدل غالبًا حين يكون مظلومًا، لكنه يُختبر فيه حين يملك القوة. يطلب ميزانًا دقيقًا لحقوقه، ثم يستخدم ميزانًا آخر مع خصومه. وإذا ظلمته جماعةٌ استنكر العصبية، فإذا قويت جماعته رأى انحيازها وفاءً. أما ميزان الوحي فلا يعرف الأسماء قبل الوقائع؛ يسأل: ما الحق؟ لا: مَن صاحبه؟ وقد يأمرك أن تشهد لخصمك إذا كان الحق معه، وأن تنكر على حبيبك إذا جاوزه.

والميزان لا يقيم فقط عدل المحاكم، بل عدل النظرة والكلمة والحكم. قد تقتل سمعة إنسانٍ بخبرٍ لم تتثبت منه، وقد تبخسه عمله لأنك تختلف معه، وقد تضخم خطأه وتصغر خطأ مَن تحب. هذه كلها موازين اختلت في الداخل قبل أن تختل في المؤسسات. وما فساد العدالة العامة إلا تراكم موازين شخصية تعلمت أن تميل للهوى.

وفي النفس ميزانٌ يحتاج إلى الوحي؛ ينبغي أن تزن اللذة بعاقبتها، والكلمة بأثرها، والمكسب بثمنه الأخلاقي. قد يبدو الشيء نافعًا في اللحظة، لكنه حين يوضع في ميزان الآخرة يظهر خاسرًا. العاقل ليس مَن يعرف قيمة الأشياء في سوق الناس فقط، بل مَن يعرف وزنها عند الله. رب كلمةٍ لم يلتفت إليها مجلسٌ كامل تهوي بصاحبها، ورب دمعةٍ خفية لا وزن لها في أعين الناس تزن عند الله كثيرًا.

والميزان يقتضي الاعتدال دون أن يتحول الاعتدال إلى مساواةٍ بين الحق والباطل. ليس كل توسطٍ عدلًا؛ فقد يقف أحدهم في منتصف المسافة بين ظالمٍ ومظلوم ثم يسمي موقفه حكمة،

مع أن الميزان يقتضي أن يوضع الظلم في كفة الإنكار والحق في كفة النصرة. الحياد في موضع الشهادة قد يكون ميلًا خفيًّا إلى الأقوى؛ لأن ترك المظلوم وحيدًا يمنح الظالم مساحةً إضافية.

كما أن الميزان لا يعني جفاف الرحمة؛ فالعدل والرحمة ليسا خصمين في الوحي. قد يكون من العدل أن تراعي ضعف الضعيف، وأن تفرّق بين زلة الجاهل وإصرار المستكبر، وبين مَن أخطأ تحت ضغطٍ شديد ومَن خطط للظلم بوعي. المساواة الحسابية بين أحوالٍ مختلفة قد تكون ظلمًا، والميزان الحكيم ينظر إلى السياق والدافع والأثر دون أن يضيع الحق.

ليقوم الناس بالقسط

ثم يكشف الله غاية إرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. لم يقل: ليُقام القسط فيهم وهم متفرجون، بل ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾؛ فالرسالة تريد إنسانًا ينهض بالعدل، لا أن ينتظره هديةً من السماء. الوحي يبيّن والميزان يهدي، لكن الناس مكلفون أن يحولوا المعرفة إلى نظامٍ وسلوكٍ ومؤسسات. لا ينزل العدل جاهزًا منفصلًا عن المجاهدة البشرية؛ يحتاج إلى ضمائر تحمل كلفته، وألسنة تشهد له، وأيدٍ تمنع العبث بميزانه.

والقيام أبلغ من مجرد الفعل؛ فيه معنى النهوض والثبات والحراسة. قد يعدل الإنسان مرةً حين يوافق العدل مصلحته، لكن أن يكون «قائمًا بالقسط» يعني أن يصير العدل مقامًا ثابتًا، يحمله حين يربح وحين يخسر، مع صديقه وخصمه، في الرضا والغضب. وأشد ما يمتحن العدل الغضب؛ لأن الإنسان حين يغضب يرى كل تجاوزٍ مباحًا، وقد يستخدم الحق الذي معه رخصةً للباطل الذي يصدر منه. لكن القائم بالقسط لا يسمح لظلم خصمه أن يحوله إلى نسخةٍ منه.

و﴿النَّاسُ﴾ لفظٌ يتجاوز حدود الجماعة الخاصة؛ فالقسط قيمةٌ للناس، لا امتيازٌ يمنح للموافق ويُحجب عن المخالف. جاءت الرسالات لتحفظ كرامة الإنسان من أن تبتلعها قوةٌ أو عصبية، ولتحرر الضعيف من أن يصبح وجوده معلقًا بمزاج القوي. وكل دعوةٍ تحمل اسم الدين ثم تضيق بالعدل إذا وصل إلى مَن تخالفه، تحتاج أن تعرض نفسها على هذه الغاية القرآنية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

إن القسط ليس مقصدًا سياسيًّا أو قضائيًّا وحده، بل عبادة. حين تعطي العامل حقه، وتقسم وقتك بعدلٍ بين مَن لهم حق عليك، وتنصف أبناءك، ولا تستغل حاجة المحتاج؛ فأنت تقيم جزءًا من الرسالة في العالم. وقد يكون ظلم البيت أصلًا لظلم الدولة؛ فالإنسان الذي تعود أن يجعل قوته حجةً في أسرته سيحمل المنطق نفسه إذا اتسعت سلطته. والعدل الكبير يتربى في المواقف الصغيرة.

والعدل يبدأ مع النفس دون أن يعني التساهل معها؛ تعطي جسدك حقه فلا تستنزفه باسم الطموح، وتعطي روحك حقها فلا تتركها جائعةً إلى الذكر، وتعطي أهلك حقهم فلا تسرقك المشروعات كلها منهم. وقد يظلم الإنسان نفسه حين يحملها ما لا تطيق بحثًا عن صورة الكمال، فيتحول التدين عنده إلى سوطٍ لا إلى طريق تزكية. القسط أن تعرف ضعفك دون أن تستسلم له، وأن تجاهد دون أن تحتقر ذاتك التي كرمها الله.

وقيام الناس بالقسط يكشف أن الرسالة لا تريد مجتمعًا تحكمه المواعظ وحدها، بل موازين واضحة تمنع الحقوق من أن تكون رهينة الأخلاق الفردية. الإحسان منزلةٌ عظيمة، لكن الناس يحتاجون قبل الإحسان إلى عدلٍ مضمون؛ فلا يصح أن يُترك أجر العامل لكرم صاحب العمل، أو حق الضعيف لشفقة القوي. القسط حق، والإحسان زيادة؛ والمجتمع الذي يكثر الحديث فيه عن الصدقات بينما تُهدر الحقوق يحتاج أولًا إلى إصلاح ميزانه.

لماذا ذُكر الحديد بعد الكتاب؟

ثم يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾. بعد الكتاب والميزان يأتي الحديد؛ لأن العالم لا يتكون من قلوبٍ تستجيب كلها للبيّنة. هناك مَن يفهم الحق ثم يرفضه لأنه يهدد سلطانه، ومَن لا يردعه وعظٌ عن أكل أموال الناس، ومَن يحطم الميزان إن لم يجد قوةً تمنعه. لذلك لا يقوم القسط بالبيان وحده، بل يحتاج إلى قوةٍ عادلة تحرسه.

ولفظ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ يحمل معنى التقدير والإيجاد والتسخير للناس، كما أن الحديد في أصله من خلق الله الذي أودعه في الأرض وهيأ لهم استخراجه والانتفاع به. وليس المقصود أن نغرق في تفاصيل المادة بعيدًا عن مقصد الآية، بل أن نرى النعمة الحضارية التي أودعها الله في هذا المعدن الصلب، وكيف جعل فيه قوةً تقوم بها حياة البشر وحماية العدل.

لقد سُمّيت السورة بالحديد لا بالكتاب ولا الميزان، مع أن ذكرهما أسبق، وربما كان في ذلك لفتٌ إلى العنصر الذي قد يسيء الإنسان فهمه أكثر من غيره. فالناس قد يزعمون أنهم يحبون النور والكتاب، لكنهم يترددون أمام القوة؛ إما أن يقدسوها حتى تصير معبودًا، وإما أن يذموها حتى يتركوا الحق أعزل. تأتي السورة لتعيد الحديد إلى موضعه الصحيح: مخلوقٌ من مخلوقات الله، فيه بأسٌ ومنافع، قيمته الأخلاقية يحددها اليد التي تمسكه والغاية التي توجهه.

بأسٌ شديد

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾. الحديد مادة السلاح والدروع وأدوات القوة، وفيه قدرةٌ على الردع والحماية، كما يمكن أن يكون أداةً للقتل والبطش. لم يقل القرآن إن البأس شرٌّ في ذاته؛ فقد يكون البأس ضرورةً لمنع شرٍّ أشد. الرحمة التي لا تستطيع حماية الضعيف قد تتحول إلى أمنيةٍ عاجزة، والعدل الذي لا تسانده قوةٌ يظل معرضًا لأن تمزقه أنياب الظالم.

لكن ترتيب الآية حاسم: الرسل والبينات، ثم الكتاب، ثم الميزان، ثم الحديد. القوة تأتي بعد معرفة الحق وتحديد العدل، فإذا تقدمت على الكتاب صارت عمياء، وإذا حطمت الميزان صارت طغيانًا. الحديد لا يملك معيار استعماله في ذاته؛ السيف نفسه قد يدفع معتديًا أو يقتل بريئًا، والسجن قد يحمي مجتمعًا أو يكون قبرًا للأحرار، والقوة العسكرية قد تحرس وطنًا أو تلتهمه. المرجع هو الكتاب والميزان.

وما أكثر ما حاولت القوى عبر التاريخ أن تجعل بأسها هو الميزان، لأننا أقوى فنحن أحق، ولأننا انتصرنا فنحن على صواب. لكن القرآن يفصل بين القدرة والمشروعية؛ قد يملك الإنسان الحديد ولا يملك الحق، وقد يُهزم صاحب الحق في جولةٍ دون أن يصبح باطله حقًّا. النصر في الأرض لا يصدر شهادةً أخلاقية تلقائية للمنتصر، فكم من ظالمٍ غلب ثم أخذه الله، وكم من نبيٍّ أو مؤمنٍ ابتُلي ولم ينقص الابتلاء من صدقه.

والبأس المشروع ينبغي أن يبقى محكومًا بالقسط حتى في مواجهة العدو؛ فلا يتحول الألم إلى رخصةٍ للعدوان، ولا تستباح البراءة باسم الانتقام. القوة التي خرجت لتحمي الإنسان تفقد شرفها إذا نسيت إنسانيته. وما يميز الحديد المؤمن عن حديد الطاغية ليس ترك القوة، بل ضبطها؛ أن يعرف متى يُرفع ومتى يُخفض، ومن يحق له استعماله، ولأي غاية، وبأي حدود.

وفي الفرد أيضًا حديدٌ معنوي يحتاج إليه؛ حزمٌ يمنعه أن يبيع مبادئه، وقوةٌ يقول بها «لا» حين تجره الشهوة، وقدرةٌ على قطع العادة التي تستعبده. ليس المؤمن روحًا رخوةً تسوقها الضغوط حيث شاءت، بل قلبه لينٌ لله قويٌّ بالحق. يجمع بين دمعة الخشوع وصلابة الموقف؛ فاللين في غير موضعه ضعف، كما أن الشدة في غير موضعها قسوة.

ومنافع للناس

ولم يحصر القرآن الحديد في الحرب: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾. من الحديد تُصنع أدوات الزراعة والبناء والصناعة والنقل، وتقوم به جسورٌ ومصانعٌ ومدن، ويدخل في تفاصيل لا تكاد الحياة الحديثة تستغني عنها. إنه معدن القوة والعمران معًا؛ يهدم في يد، ويبني في أخرى، ويقتل في سياق، وينقذ في سياق.

تقديم البأس على المنافع في السياق المتصل بقيام القسط يبرز وظيفة الردع، لكن جمعهما يرفض اختزال القوة في السلاح. الأمة القوية ليست فقط التي تملك أدوات القتال، بل التي تحسن استخراج مواردها، وصناعة حاجاتها، وإقامة عمرانٍ يخدم الإنسان. قد تملك حديدًا كثيرًا وتبقى ضعيفةً إذا كانت عقولها مستوردة الإرادة، وإذا لم تستطع تحويل المادة إلى معرفةٍ ونظامٍ ومصلحةٍ عامة.

﴿مَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ ينبغي أن تنتهي الحضارة إلى نفع الناس، لا إلى تضخيم الآلة على حساب الإنسان. ما قيمة صناعةٍ متقدمة إذا سحقت العامل، أو تقنيةٍ مذهلة إذا تحولت إلى أداة مراقبةٍ واستعباد، أو عمرانٍ فخم إذا بُني فوق جوع الفقراء؟ الميزان القرآني يسأل كل قوةٍ مادية: أين نفع الناس؟ فالوسيلة التي تبدأ لخدمتهم ثم تنتهي إلى التسلط عليهم تحتاج إلى أن تُرد إلى القسط.

والناس هنا جميعًا؛ ليس الحديد نعمةً لطائفةٍ تحتكر القوة ثم تجعل الآخرين مواد لمشروعها. المنفعة العامة جزءٌ من أخلاق العمران؛ الطرق والماء والصناعة والأمن والمعرفة ينبغي أن تصب في كرامة المجتمع، ولا تختبئ ثمرتها في خزائن قلة. حين ينفصل التقدم عن العدل، قد تزيد الأدوات وتتناقص الإنسانية، ويصير الحديد أكثر لمعانًا والقلوب أشد قسوة.

إن الجمع بين «البأس» و«المنافع» يعلّمنا ألا ننظر إلى الأشياء من وجهٍ واحد. القوة التي نخافها قد تحمل باب نفع، والشيء النافع قد يحمل خطرًا يحتاج إلى ضبط. الحكمة ليست في تقديس الأدوات أو شيطنتها، بل في وضعها تحت سلطان القيم. التقنية، والمال، والإعلام، والسلطة؛ كلها حديدٌ حديث، فيها بأسٌ ومنافع، وتحتاج إلى كتابٍ وميزان.

امتحان النصرة في زمن الغيب

ثم يكشف الله جانبًا من حكمة هذا كله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾. علم الله سابقٌ محيط، لا يطرأ عليه علمٌ بعد جهل، تعالى عن ذلك؛ وإنما يظهر في عالم الشهادة ما سبق في علمه، فيتميز العامل من المدعي وتقوم الحجة. فالابتلاء يكشف للخلق، ويحقق في الواقع، مَن ينصر الحق ومَن يكتفي بالحديث عنه.

﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ لا تعني أن الله يحتاج إلى ناصر، فالآية نفسها تختم بأنه قويٌّ عزيز. إنما نصرة الله هي نصرة دينه وكتابه وشرعه وعباده، وهي تشريفٌ للإنسان بأن يُنسب موقفه إلى نصرة رب العالمين. يا لعظمة الكرامة ويا لعظمة المسؤولية! العبد الضعيف الذي لا يملك نبض قلبه يدعوه القوي العزيز إلى أن يكون من أنصار الحق، لا حاجةً إليه، بل رفعًا لمقامه واختبارًا لصدقه.

ونصرة الرسل لا تكون بتعظيم أسمائهم مع إهمال رسالاتهم؛ قد يكثر المرء من الثناء على النبي ﷺ ثم يخالف عدله ورحمته وأمانته. النصرة الحقيقية أن تحرس ما جاء به من التحريف، وأن تجعل سنته ميزانًا للسلوك، وأن تدافع عن كرامة الإنسان التي جاء الوحي بحفظها. الحب الذي لا يثمر اقتداءً يظل دعوى ناقصة.

﴿بِالْغَيْبِ﴾؛ ينصرون الله ورسله وهم لم يروا الله، لكنهم آمنوا بخبره، ولم يشاهدوا الآخرة، لكنهم بنوا حياتهم عليها. كما أن النصرة تقع حين يغيب تصفيق الناس، وحين لا تبدو الثمرة قريبة، وحين يكون الحق محاصرًا لا يمنح أنصاره مكاسب عاجلة. هناك يظهر الصدق: أن تقف مع الحق لأنه حق، لا لأنك ضمنت انتصاره في حساب اللحظة.

والنصرة بالغيب هي أيضًا نصرةٌ في الخلوة؛ أن تنصر أمر الله على هواك حين لا يراك أحد، وأن تحمي حدوده داخل نفسك قبل أن ترفع شعاراتها في الخارج. قد يهتف الإنسان لنصرة الدين في المجالس، ثم ينهزم أمام شهوة صغيرة في غرفته، أو يظلم عاملًا ضعيفًا تحت يده. تبدأ نصرة الله من المملكة التي وُكّلت بها أولًا: قلبك وجوارحك وبيتك.

ونصرة الحق ليست صخبًا دائمًا، قد تكون كلمة علمٍ تفك شبهة، أو مالًا يثبت مشروع خير، أو موقفًا يحمي مظلومًا، أو تربية طفلٍ على الصدق، أو صبرًا في موقعٍ يوشك فيه الآخرون أن يبيعوا الأمانة. ليست كل النصرة حديدًا ظاهرًا؛ الكتاب نصرة، والميزان نصرة، والرحمة نصرة، والحديد أحد أدواتها حين تقتضي الحكمة.

الله لا يحتاج إلى سيوفنا

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. تختم الآية بما يمنع القوة من الغرور؛ فأنتم لا تنصرون الله لأنه ضعيف، ولا تحمون رسله خارج قدرته، بل هو القوي الذي تستمد كل قوةٍ وجودها منه، والعزيز الذي لا يُغلب. لو شاء لأهلك الباطل بغير أيديكم، لكنه أراد أن يبتليكم ويطهركم ويمنحكم شرف الوقوف في صف الحق.

وحين ينسى أصحاب القوة هذه الخاتمة، قد يظنون أنهم أوصياء على دين الله، فيبطشون باسمه ويجعلون أنفسهم فوق الميزان. لكن الذي ينصر الله ينبغي أن يكون أول الخاضعين لكتابه، وأشد الناس محاسبةً لقوته؛ لأنه يعلم أنها ليست ملكًا شخصيًّا، وأن الله قادرٌ على نزعها. لا يصبح الظلم عدلًا لأن فاعله رفع رايةً دينية، ولا يصبح الحديد مقدسًا لمجرد أن حامله ادعى النصرة؛ الميزان هو القسط.

﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تعيد الطمأنينة أيضًا إلى مَن يرى ضعف أهل الحق في مرحلةٍ من المراحل. الحق لا يستمد بقاءه من كثرة أتباعه، ودين الله لا يسقط لأن بعض أنصاره تراجعوا. قد يبتلي الله أهله، ويؤخر النصر، ويميز الصفوف، لكنه لا يُغلب. المطلوب من المؤمن أن يكون صادقًا في موقعه، لا أن يحمل همَّ الكون كأن تدبيره إليه؛ يعمل بكل ما يستطيع، ثم يسلِّم النتائج للقوي العزيز.

حين يكون القلب ألين من الرحمة والموقف أصلب من الحديد

هذه الآية ترسم شخصية المؤمن والمجتمع معًا: قلبٌ يتلقى البيّنات، وعقلٌ يهتدي بالكتاب، وضميرٌ يزن بالعدل، ويدٌ تملك القوة دون أن تعبدها. لا يكون المؤمن قاسي القلب رقيق الموقف، يبكي عند التلاوة ثم يصمت أمام الظلم؛ ولا يكون صلب الموقف خاليًا من الرحمة، يحوّل الحق إلى مطرقةٍ تهشم الناس. إنما يجمع بين لين القلب وصلابة المبدأ، وبين الرحمة التي ترى الإنسان والقوة التي تمنع افتراسه.

الكتاب من دون ميزان قد يُساء فهمه ويُستخدم لتبرير الهوى، والميزان من دون كتاب قد يتغير بتغير المصالح، والكتاب والميزان من دون قوة قد يبقيان أمنيةً أمام الطغيان، والقوة من دون كتابٍ وميزان تصير طغيانًا جديدًا. هذه العناصر لا يستغني بعضها عن بعض؛ إنها هندسة الرسالة في الأرض.

وفي هذا يتجلى سر اسم السورة. الحديد ليس مركزها منفصلًا عن النور، بل هو امتحان النور حين يدخل مجال القوة. هل يستطيع الإنسان أن يحمل الحديد دون أن يصير قلبه حديدًا؟ هل يملك السلطة دون أن تملكه؟ هل يقيم القسط حين يستطيع الظلم ولا يجد من يمنعه؟ هنا تظهر حقيقة الإيمان؛ فالمستضعف قد يتحدث طويلًا عن العدل لأنه يحتاج إليه، لكن الامتحان الأشد يأتي حين يوضع الحديد في يده: أيبقى وفيًّا للميزان، أم يكتشف الناس أن اعتراضه القديم لم يكن على الظلم، بل على أنه لم يكن هو الظالم؟

السورة تريد أن تنزل نور السماء إلى صلابة الأرض؛ فلا يبقى الوحي ترنيمةً بعيدةً عن وجع البشر، ولا تبقى القوة وحشًا منفصلًا عن هداية الله. بين الكتاب والحديد يقف الميزان، وبين الرحمة والبأس يقوم القسط، وبين غنى الله وضعف الإنسان يقع امتحان النصرة. فَمَن حمل الكتاب في قلبه، والميزان في ضميره، والحديد في يده دون أن يطغى، فقد فهم شيئًا من الأمانة التي من أجلها أُرسل الرسل وقامت الرسالات.

حين ورث الأبناءُ الكتابَ ولم يرثوا حرارةَ النبوَّة

تأملات في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

بعد أن رسمت الآية السابقة هندسة الرسالات كلها في البيّنات والكتاب والميزان والحديد، تنتقل السورة إلى مجرى النبوة في التاريخ، فتذكر نوحًا وإبراهيم عليهما السلام، ثم مواكب الرسل الذين جاؤوا من بعدهما، ثم عيسى ابن مريم عليه السلام وما أُوتي من الإنجيل، وما جُعل في قلوب أتباعه الصادقين من رأفةٍ ورحمة. وكأن السورة تريد أن تقول: إن النور الذي دعاكم إلى الخشوع اليوم ليس حادثةً منفصلةً عن قصة البشرية، بل هو النهر نفسه الذي جرى منذ القدم، تعاقبت عليه وجوه الأنبياء، وتغيرت اللغات والأقوام، لكن النداء واحد: أن يعرف الإنسان ربَّه، وأن يزن حياته بميزان الوحي، وأن يقيم العدل ولا يتخذ قوته أو هواه إلهًا.

غير أن التاريخ النبوي لا يُعرض هنا بوصفه سلسلة أمجادٍ تمنح المنتسبين إليها حصانةً تلقائية، بل بوصفه امتحانًا يتكرر: نبيٌّ يأتي بالهدى، وقلبٌ يستجيب، وذريةٌ ترث الكتاب، ثم لا يكون جميع الوارثين أوفياء لما ورثوا. ولهذا تقول الآية: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. النسب إلى الأنبياء شرفٌ لا ينفع وحده، وحمل الكتاب أمانةٌ لا صك نجاة، والوقوف قريبًا من منبع النور لا يضمن أن يشرب القلب إذا أغلق فمه.

نوح: الإيمان الذي لم تُطفئه القرون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾. يبدأ ذكر السلسلة بنوحٍ عليه السلام، الأب الثاني للبشر، وصاحب الدعوة التي صارت رمزًا للصبر الطويل في مواجهة الإعراض. يمضي النبي في قومه زمنًا ممتدًّا، يدعو ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، ويبدل طرائق الخطاب، فلا يحوله بطء الاستجابة عن صدق الرسالة. هنا يظهر أن قيمة الداعية لا تُقاس دائمًا بسرعة النتائج، قد يكون صادقًا كامل البلاغ، ثم تأتي الثمرة في صورةٍ لا توافق مقاييس النجاح العاجل.

نوح عليه السلام يعلّم حامل الحق ألا يجعل تصفيق الناس دليلًا على صحة ما يحمل، ولا إعراضهم دليلًا على بطلانه. فالجمهور قد يرد الحق لأنه يهدد عاداتٍ طويلة أو مصالح مترسخة، وقد يختار المرء طوفانًا يراه بعينيه على أن يترك صنمًا ورثه عن آبائه. ليست وظيفة الرسول أن يخلق الهداية في القلوب؛ عليه البيان والبلاغ والصبر، أما فتح القلب فمن الله.

وفي قصة نوح معنى يناسب سورة الحديد؛ فقد دعا قومًا قست قلوبهم حتى صار طول الأمد عنده زمن صبر، وعندهم زمن إصرار. الزمن نفسه قد يزيد مؤمنًا رسوخًا ويزيد معرضًا قسوة؛ ليس مرور السنوات هو الذي يزكي، بل ما يفعله القلب بها. قد يبلغ الإنسان عمرًا طويلًا ولم يقترب من الحقيقة خطوة، وقد تختصر لحظة صدقٍ مسافاتٍ كاملة.

ونوحٌ عليه السلام لم يكن صاحب فكرةٍ فلسفية تناقش في المجالس ثم تنتهي، بل صاحب سفينةٍ تُبنى تحت السخرية؛ أي إن الوحي عنده تحوَّل إلى عملٍ ملموس قبل أن تظهر الحاجة إليه للعيون. كان يبني وسيلة النجاة والأرض لا تزال يابسةً في نظرهم، لأنه صدَّق خبر الله أكثر مما صدَّق ظاهر اللحظة. وهذه هي طبيعة الإيمان بالغيب: أن تعمل لما وعد الله قبل أن تراه، وأن تصنع سفينتك بينما يسخر الذين لا يرون إلا السماء الصافية.

لكل مؤمنٍ سفينةٌ ينبغي أن يبنيها قبل طوفانه: علمٌ يحميه حين تتكاثر الشبهات، وعادة ذكرٍ تسنده حين تشتد الغفلة، وصحبة صدقٍ تحفظه حين تضيق الطرق، وصدقةٌ يرسلها قبل يوم الفقر الأكبر. لا تنتظر اشتداد العاصفة حتى تبدأ جمع الخشب؛ ففي زمن الرخاء تُصنع أدوات الثبات.

إبراهيم: الرجل الذي جعل التوحيد ميراثًا في التاريخ

ثم ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾. إذا كان نوحٌ عليه السلام رمز الصبر أمام طول التكذيب، فإن إبراهيم عليه السلام رمز التوحيد الذي واجه وحده عالمًا كاملًا من الأصنام. نظر إلى ما يعبد الناس، فلم تمنعه كثرتهم من أن يسأل، ولم تمنحه القِدَمية الباطلَ حقًّا، ولم يرض أن يرث العقيدة كما يرث الأثاث دون أن يعرضها على نور الله. حطم الأصنام الظاهرة، لكن مهمته الأعمق كانت تحرير العقل من صنم الجماعة وصنم التقليد وصنم الخوف.

إبراهيم عليه السلام أمةٌ في رجل؛ لا لأن جسده كان أقوى من الجموع، بل لأن قلبه كان موصولًا بمصدر القوة. وقف أمام النار ولم تكن نجاته في غيابها، بل في أن الله سلبها خاصية الإحراق حين شاء. وهنا تتجلى عظمة التوحيد: ليس معناه أن تغيب النار من طريق المؤمن، بل أن يعرف أن النار نفسها مخلوقةٌ لا تستقل بفعلها عن أمر الله. الأسباب حق، لكنها ليست آلهة؛ والحديد فيه بأس، لكنه لا يخرج عن سلطان القوي العزيز.

وفي مسيرة إبراهيم تجتمع معاني السورة: التسليم لله، والإنفاق بأغلى ما يحب، والهجرة من الأرض التي تضيق بالتوحيد، وبناء البيت للناس، والدعاء للذرية، ثم الخوف من ألا يُقبل العمل. إنه يبني القواعد ويرفعها، ومع ذلك يقول مع ابنه إسماعيل: ربنا تقبل منا؛ لأن الصدِّيق لا يرى العمل دليلًا على استغناءٍ عن الفضل، بل يزداد بعد العمل فقرًا إلى القبول.

والقرآن يذكر إبراهيم لا ليمنح ذريته امتيازًا عرقيًّا، بل ليجعل التوحيد هو معيار الانتساب الحقيقي إليه. مَن حمل اسمه وخالف ملته لم ينفعه النسب، ومَن اتبع توحيده وصدقه كان أولى به من جهة الإيمان. وهذا ما تؤكده الآية حين تذكر ما جُعل في ذريته ثم تميز المهتدي من الفاسق.

النبوة والكتاب في الذرية

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾. تفرعت من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام مواكب الأنبياء، ونزلت فيها الكتب التي هدت أممًا وأقامت حججًا. وهذا جعلٌ إلهي، لا استحقاقٌ عرقي؛ فالله يصطفي من يشاء بحكمته، والاصطفاء تكليفٌ قبل أن يكون تشريفًا. مَن وُضع الكتاب في بيته حُمِّل عبئًا أكبر؛ لأنه صار مسؤولًا عن حفظه وإقامة معناه، لا عن التفاخر بأن الوحي مرَّ في تاريخه.

إن النبوة لا تورث بالدم كالممتلكات، بل يختار الله لها مَن يشاء. أما الذرية فقد تحمل أثر الأنبياء وتعاليمهم وكتبهم، ثم تُختبر: هل تجعل هذا الميراث حياةً متجددة، أم تحوله إلى رأس مالٍ رمزي تتفوق به على الآخرين؟ وكم من أمةٍ عاشت على ذاكرة رجلٍ عظيم حتى نسيت الرسالة التي جعلته عظيمًا! تحفظ اسمه وتبني له الرموز، لكنها لو عاد إليها حاملًا نقده الأول ربما قاومته؛ لأن الأنبياء لا يرضون أن تتحول ذكراهم إلى صنمٍ يحجب دعوتهم.

والكتاب إن لم يجد قلبًا حيًّا قد يصبح حجةً على حامله. ليس الخطر في فقد النص وحده، بل في فقد الخشوع له مع بقاء النص بين اليدين. وقد حذرت السورة قبل قليل من الذين أوتوا الكتاب فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم؛ وهنا تعرض امتداد الكتاب في الذرية لتؤكد أن كل جيلٍ مطالبٌ بأن يتلقى الوحي تلقّيًا جديدًا، لا بمعنى اختراع دينٍ جديد، بل بإحياء الصلة بالأصل حتى لا تختنق تحت تراكم العادات.

لكل جيلٍ امتحانه الخاص في حمل الكتاب. قد تكون معركة جيلٍ حماية النص من الضياع، ومعركة آخر تحرير معانيه من التحريف، ومعركة ثالث تنزيل عدله على واقعٍ جديد. الوفاء للكتاب ليس تكرار صيغ السابقين دون فهم، ولا قطع الصلة بعلومهم، بل الجمع بين الأمانة والبصيرة: حفظ الأصل، وفهم الواقع، وإنزال الهداية في مواضعها دون إخضاعها للهوى.

الهداية لا تسري في الدم

﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ﴾. لم يلغ القرآن فضل المهتدين من تلك الذرية، ولم يحاكم الجميع بخطأ بعضهم؛ فالعدل القرآني يميز الأفراد والمواقف، ويعطي لكل نفسٍ عملها. فيهم أنبياء وصالحون وصدّيقون حملوا النور بصدق، وكانوا جسورًا عبرت عليها الهداية إلى الناس. لا يملك مؤمنٌ أن يخشهم لأنهم من أمةٍ سابقة، فالحق لا يتغير بتغير الأسماء، والصالح محبوبٌ بقدر صلاحه.

لكن ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. الفسق خروجٌ عن الطاعة والحد، وقد خرج كثيرون عن مقتضى الكتاب مع انتسابهم إليه. لم يمنعهم النسب إلى بيت النبوة، ولا وجود الكتاب في تاريخهم، من أن يختاروا الطريق الآخر. وهنا يُهدم وهم النجاة الجماعية: لا يدخل الناس على الله تحت لافتات أنسابهم، بل أفرادًا يحمل كلٌّ منهم كتابه.

وقد تكون الكثرة هنا موجعةً؛ لأن الوحي كان قريبًا منهم، ومع ذلك لم يهتدِ الجميع. القرب من المقدس قد يتحول إلى اعتياد، والاعتياد إلى غفلة، والغفلة إلى فسق، إذا لم يتجدد الخشوع. الذي يسمع الأذان كل يوم قد يقل تأثره به عن غريبٍ سمعه أول مرة فارتجف قلبه، والذي نشأ بين الكتب قد لا يذوق سؤالًا واحدًا منها إذا تعامل معها بوصفها جزءًا من أثاث الهوية.

وهذا تحذيرٌ للأمة التي خُتمت عندها الرسالات: ليس وجود القرآن بيننا ضمانًا مستقلًّا عن إيماننا وعملنا، ولا كثرة الحديث عن النبي ﷺ بديلًا عن الاقتداء به. قد ننتقد الذين أوتوا الكتاب من قبل لأنهم فصلوا الميراث عن الطاعة، ثم نكرر الفعل نفسه ونحن نظن أن أسماءنا تحمينا. السنن لا تجامل أحدًا، والكتاب الذي كشف انحراف السابقين سيشهد على اللاحقين إن جعلوه شاهدًا على غيرهم ولم يجعلوه حكمًا على أنفسهم.

قافلةٌ تتبع قافلة

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾. تقفية الرسل تعني إتباع بعضهم بعضًا، يسير اللاحق على أثر السابق في أصل التوحيد والهداية. يا له من موكبٍ ممتد عبر القرون! كلما خفت صوتٌ نبوي في أمة، بعث الله رسولًا يجدد العهد، ويزيل ما تراكم على الفطرة، ويرد الإنسان إلى ربه. ليست الرسالات جزرًا متخاصمة، بل حلقاتٌ في سلسلة الوحي؛ يصدق بعضها بعضًا في الأصول، وإن اختلفت بعض الشرائع باختلاف أحوال الأمم وحكمة الله.

وفي لفظ ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ صورة طريقٍ مشتهرة عليه خُطى الأنبياء، يمضي رسولٌ، ثم يأتي من بعده رسولٌ فيجد أثر أخيه، لا ينافسه على مجدٍ شخصي، بل يكمل بناءً واحدًا. الأنبياء لا يهدم بعضهم بعضًا، ولا يحتكر أحدهم الناس لنفسه؛ دعوتهم جميعًا إلى الله. وما أحوج حملة الرسالات من بعدهم إلى هذا الخلق: أن يرى اللاحق نفسه مكمِّلًا لا مالكًا للحقيقة، وأن يحفظ فضل السابق دون أن يجمد عند مرحلته.

الأثر النبوي ليس أثر قدمٍ على تراب التاريخ فحسب، بل أثر قيمةٍ في قلب الإنسان. الصدق أثر، والرحمة أثر، والثبات أثر، والعدل أثر. من مشى على آثار الرسل لا يكفيه أن يعرف تسلسل أسمائهم، بل ينبغي أن يسأل: هل في خطوتي شيءٌ من وجهتهم؟ قد تعرف الطريق على الخريطة كلها، لكن المعرفة لا توصلك ما لم تمش.

عيسى ابن مريم: كلمةُ الطهر في زمن المادية

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾. يذكره القرآن باسمه منسوبًا إلى أمه الطاهرة، مثبتًا بشريته وعبوديته لله، ومكرمًا مريم عليها السلام التي كانت آيةً في العفة والتصديق. عيسى عليه السلام رسولٌ عظيم من أولي العزم، جاء حلقةً كريمةً في موكب الأنبياء، مصدقًا لما بين يديه من التوراة، وداعيًا إلى عبادة الله وحده، لا إلى عبادة نفسه.

وتكرار نسبته إلى مريم يحمل تصحيحًا عقديًّا رقيقًا حاسمًا؛ هو ابن مريم، خلقه الله بآيةٍ من غير أب، كما خلق آدم من غير أبٍ ولا أم، ولا تجعل المعجزة المخلوق خالقًا. القدرة التي أوجدت الحياة أول مرة لا يعجزها أن تخلق على غير المألوف، والمألوف نفسه ليس قانونًا يقيّد الله، بل سنةٌ أجراها ويمكنه أن يخرقها متى شاء.

وقد جاء عيسى عليه السلام في سياقٍ احتاج إلى تجديد حياة الروح والرحمة، لكن رحمته لم تكن تفريطًا في التوحيد، ولينه لم يكن قبولًا بالتحريف. القلب الرحيم يمكن أن يكون حاسمًا في الحق، كما أن القوة العادلة يمكن أن تسكن قلبًا خاشعًا. وهذه السورة تجمع هذين الطرفين: رأفة أتباع عيسى الصادقين، والحديد الذي فيه بأسٌ شديد؛ كيلا نختزل الدين في صلابةٍ بلا رحمة، أو رحمةٍ بلا ميزان.

الإنجيل: نورٌ أُعطي لعبدٍ رسول

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾. الإنجيل كتابٌ أنزله الله على عيسى عليه السلام هدىً ونورًا، داخلًا في سلسلة الكتاب الذي جاء به الرسل. وإيتاؤه من الله يثبت مصدره ووظيفة عيسى في تلقيه وتبليغه. ليس الوحي نتاج تجربةٍ نفسية بشرية، بل عطاءٌ من رب العالمين يختار له مَن يصطفي من عباده.

والإيمان بالإنجيل الذي أنزله الله أصلٌ من أصول إيمان المسلمين بكتب الله، مع الاعتقاد بأن القرآن هو الكتاب الخاتم المهيمن، والمحفوظ الذي يُرجع إليه في تمييز الحق مما دخله التبديل عبر التاريخ. ولا يدفعنا بيان التحريف إلى ظلم كل منتسبٍ إلى الكتب السابقة أو إنكار ما بقي لديه من معاني الحق، فالقرآن نفسه يميز، ويقول: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ﴾، ويثني هنا على ما جُعل في قلوب أتباع عيسى من رأفةٍ ورحمة.

إن ميزان الوحي يمنعنا من الإطلاق الجائر، لا نقدس تاريخ أمةٍ كله، ولا نلغيه كله. نعترف بالحق حيث كان، وننكر الباطل حيث ظهر، ونزن الأشخاص بأعمالهم لا بمجرد الانتساب. وهذا من القسط الذي جاءت به الرسل؛ أن يظل الحكم عادلًا حتى مع المخالف، وألا يحول الاختلاف العقدي إلى إذنٍ بالكذب أو البخس.

الرأفة والرحمة في قلوب الأتباع

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾. يثني الله على ما أودعه في قلوب الأتباع الصادقين من لينٍ ورحمة. والرأفة رقةٌ تدفع الألم عن الغير، والرحمة إحسانٌ يطلب خيره. لقد كان هذا اللين أثرًا من آثار اتباع النبي الكريم الذي حمل رسالةً من الله، فلم تكن الرحمة اختراعًا ذاتيًّا يقطعهم عن الوحي، بل جعلًا إلهيًّا أثمره صدق الاتباع.

تأمل أن موضع الرأفة والرحمة هو القلوب، فالخلق الرحيم لا يبدأ من نظامٍ خارجي فقط، بل من باطن يرى في الآخر إنسانًا له ألمٌ وكرامة. قد تفرض القوانين على المرء ألا يؤذي، لكنها لا تستطيع وحدها أن تصنع في قلبه شوقًا إلى جبر المكسور. الوحي يفعل الأمرين: يضع الميزان ليمنع الظلم، ويزكي القلب كي يعطي فوق حد العدل إحسانًا.

والرأفة ليست ضعفًا، كما أن القسوة ليست قوة. قد يعجز القاسي عن الرحمة لأنه يخشى أن يواجه هشاشته، فيغلف نفسه بالحديد. أما الرحيم حقًّا فيملك شجاعة الاقتراب من الألم وحمله. أن تدخل إلى جرح إنسانٍ دون أن تستغله، وأن تصغي إليه دون أن تجعل حكايته فرصةً لإظهار حكمتك، وأن تساعده دون أن تستعبده؛ كل ذلك قوةٌ أخلاقية لا يملكها كل أحد.

لكن الرحمة تحتاج إلى الكتاب والميزان حتى لا تنحرف. قد يظن المرء أن الرحمة تقتضي ترك المخطئ فيما يهلكه، أو السكوت عن ظالمٍ لأن مواجهته تؤلمه. ليست كل شدةٍ قسوة، كما أن ليس كل لينٍ رحمة. الطبيب يجرح بالمشرط ليشفي، والأب يمنع ابنه ما يضره وإن بكى، والقاضي يقيم الحق كيلا يفترس المعتدي الضعفاء. الرحمة الحكيمة تريد الخير الحقيقي، لا الراحة المؤقتة وحدها.

وفي المقابل يحتاج الحديد إلى الرأفة؛ لأن القوة إذا لم تسمع أنين البشر حولها تحولت إلى آلة. يستطيع القانون أن يعاقب، لكن الرحمة تسأل أيضًا عن أسباب السقوط وإمكان الإصلاح. يستطيع النظام أن ينظم الأرقام، لكن القلب الرحيم يرى وراء كل رقمٍ وجهًا وقصة. الحضارة التي صنعت حديدًا قويًّا ولم تصنع قلبًا رحيمًا قد تبني آلاتٍ مذهلةً لهدم الإنسان.

حين يضيف الإنسان على الطريق ما لم يكتبه الله

ثم يقول تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾. الرهبانية صورةٌ من الانقطاع والتشدد في العبادة، ابتدعها قومٌ من أتباع عيسى عليه السلام، لم يفرضها الله عليهم في أصل الشريعة. وهذه العبارة تكشف خطرًا دقيقًا يقع فيه المتدين حين يظن أن الزيادة في المشقة تعني دائمًا زيادةً في القرب. قد يطلب رضا الله، لكنه يخترع طريقًا لم يشرعه الله، فيجعل ذوقه أو رد فعله على فساد الواقع مصدرًا للتكليف.

الدين ليس ساحةً يثبت فيها الإنسان حبه لله بتعذيب نفسه؛ الله أعلم بما يصلح خلقه، وقد شرع لهم من العبادة ما يزكي الروح ويحفظ الفطرة. حين يحرّم الإنسان على نفسه ما أحل الله طلبًا للكمال، قد يبدو في البداية مجاهدةً عالية، لكنه يضع على النفس حملًا لم يُقدر بميزان الوحي، وقد ينتهي إلى العجز أو النفاق أو الانفجار في الاتجاه المقابل.

وفي الرهبانية محاولةٌ للهروب من فتنة العالم بالابتعاد عن العالم نفسه. قد يرى الإنسان فساد المال أو الشهوة أو السلطة، فيظن أن العلاج هو إلغاء التعامل معها كليةً، لا تهذيبها بالوحي. لكن الرسالة الخاتمة لا تريد إنسانًا لا يملك كيلا يُفتن، بل إنسانًا يملك وينفق؛ ولا إنسانًا يهرب من المجتمع، بل يعيش فيه ويقيم القسط؛ ولا قلبًا يكره الجمال، بل يشكر الله عليه ولا يعبده. العفة أعمق من غياب الفرصة، والأمانة لا تظهر كاملةً إلا حين تكون الخيانة ممكنةً ثم تُترك لله.

ولا يعني هذا أن كل خلوةٍ أو تقليلٍ من المباح مذموم؛ فقد يحتاج القلب إلى عزلةٍ مؤقتة يجمع فيها شتاته، وقد يترك الإنسان بعض المباحات تربيةً لنفسه أو خوفًا من فتنةٍ تخصه، ما دام لا يجعل ذلك شريعةً عامة، ولا يعتقد تحريم ما أحل الله، ولا يبخس من سلك الطريق المشروع. للنفس أحوال، لكن الدين لا يُعاد تشكيله بحسب كل حال.

الابتداع يبدأ أحيانًا من نيةٍ تبدو صالحة: يريد المرء مزيدًا من التعبد، ثم لا يكتفي بما شرعه الله، كأن الميزان الإلهي دون طموحه الروحي. وفي عمق هذا تجاوزٌ لمقام العبودية؛ فالعبد لا يختار فقط أن يعبد، بل يعبد كما يحب الله. الإخلاص يجيب عن سؤال: لمن؟ والمتابعة تجيب عن سؤال: كيف؟ ولا يكفي أن تكون الغاية نبيلةً إذا كان الطريق إليها مخالفًا للهدي.

ابتغاء رضوان الله: النية الحسنة لا تكفي وحدها

يقول سبحانه: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾. في فهم تركيب هذه الجملة أقوالٌ لأهل التفسير، ويظهر من سياقها أنهم ابتدعوها قاصدين بها طلب رضوان الله، لا أنها كانت تشريعًا ألزمهم الله به، ثم لم يقوموا بما التزموه حق القيام. وهذا يقرر قاعدةً بالغة الأهمية: النية الحسنة عظيمة، لكنها لا تصحح كل طريق. قد يريد الإنسان وجه الله ثم يخطئ الوسيلة، ولذلك يحتاج الحب إلى علم، والحماسة إلى ميزان، والإخلاص إلى اتباع.

كثيرٌ من الأخطاء الكبرى بدأت بغايةٍ نبيلة لم يحرسها الوحي. قد يظلم الإنسان دفاعًا عن الحق، ويكذب لحماية الدعوة، ويهدر كرامة شخصٍ بحجة مصلحة الجماعة، ثم يطمئن إلى نيته. لكن الكتاب والميزان لا يسمحان للغرض أن يقدس كل وسيلة؛ فالحق لا يحتاج إلى باطلٍ ينصره، والعدل لا يُبنى بالظلم، ودين الله لا يفتقر إلى معصيته كي يقوم.

والنية نفسها تحتاج إلى فحص؛ فقد يبدأ العمل ابتغاء رضوان الله، ثم تتسلل إليه لذة التفوق على الآخرين، ويصير التشدد علامةً يعرِّف بها المرء نفسه ويحتقر من لا يشبهه. النفس قد تتخذ من التضحية مادةً للكبر، كلما شقَّت على نفسها أكثر شعرت أنها أرفع من عامة المؤمنين. وهكذا تتحول العبادة التي قصدت كسر الأنا إلى غذاءٍ خفي لها.

أما الطريق النبوي فيجمع بين علو الغاية واعتدال المنهج. يعبد النبي ﷺ ربه أصدق العبادة، ويقوم حتى تتفطر قدماه، لكنه ينام ويأكل ويتزوج ويخالط الناس ويحمل هم مجتمعهم. لم يكن قربه من الله هروبًا من بشرية الإنسان، بل تحقيقًا لها في أكمل صورها. الروحانية القرآنية لا تكره الجسد، وإنما ترفض أن يصير الجسد سيدًا، ولا تلغي الدنيا، بل تجعلها في خدمة الآخرة.

العهود التي ننشئها ثم نعجز عن حملها

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾. حتى ما ألزموا أنفسهم به لم يحفظه أكثرهم كما ينبغي؛ لأن الحمل الذي يختاره الإنسان خارج ميزان التشريع قد يتجاوز قدرته، ولأن حرارة البداية لا تضمن دوام الطريق. قد يندفع في لحظة تأثر فيعاهد نفسه على برنامجٍ شديد، ثم يفتر، فيتحول عجزه إلى شعورٍ دائم بالفشل، وربما ترك الأصل المشروع لأنه لم يستطع الوفاء بالزائد الذي فرضه على نفسه.

وهنا درسٌ في فقه الاستمرار: ليس أفضل العمل أشده في لحظة، بل ما كان أحب إلى الله وأدوم على صاحبه. النهر الهادئ الذي يجري أعوامًا أقدر على إحياء الأرض من سيلٍ جارفٍ يمر لحظةً ثم ينقطع. والعبادة المستقرة، وإن بدت قليلة، تبني القلب طبقةً بعد طبقة؛ أما الاندفاع غير المتزن فقد يرهق النفس حتى تنفر من الطريق.

ورعاية العبادة ليست المحافظة على صورتها فقط، بل حفظ مقصدها. قد يبقى اللباس الرهباني بعد أن تضعف حقيقة الزهد، ويبقى الانقطاع بعد أن يتسلل حب المكانة، وتبقى الطقوس بينما تفارقها الرأفة والرحمة التي أثنى الله عليها. الشكل أكثر قدرةً على البقاء من الروح، لأنه أسهل في التوريث والقياس، أما الروح فتحتاج إلى صدقٍ متجدد. لذلك قد تحافظ جماعةٌ على تفصيلٍ صنعه تاريخها، ثم تضيع الأصل الذي من أجله بدأ التفصيل.

وهذا الخطر لا يخص الرهبانية وحدها، كل وسيلة دينية يمكن أن تنقلب إلى غاية. قد ينشأ تنظيمٌ لخدمة الرسالة، ثم تصبح حماية التنظيم مقدمةً على الحق، وقد يُنشأ منهجٌ لتعليم القرآن، ثم يصير النجاح في نظامه أهم من أثر القرآن في المتعلم، وقد تُتخذ عادةٌ صالحة ثم يُقاس بها إيمان الناس كأنها فرضٌ من الله. الرعاية الصحيحة أن تبقى الوسائل خادمةً للمقاصد، لا أن تبتلعها.

العدل الذي يميز ولا يعمم

ثم يقول تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾. لم يحمل القرآن الجميع خطأ المنحرفين، بل استخرج من بينهم المؤمنين، وأثبت لهم أجرهم. وهذا عدلٌ ينبغي أن يتربى عليه القلب: ألا تحوّل نقد ظاهرةٍ إلى إدانة جماعية، وألا تمحو الصالحين لأن الكثرة انحرفت. الله يعرف كل قلبٍ باسمه وحقيقته، ويعطيه ما يستحق، ولا يضيع إيمان أحدٍ بسبب الجماعة التي ينتسب إليها.

وفي التعبير تكريمٌ لأهل الإيمان الصادق من أتباع الرسل؛ فَمَن صدَّق نبيَّه في زمنه واتبع وحي الله كان على هدى وله أجره. الرسالات في أصولها سلسلة نور، والمؤمن الحق يحب أنبياء الله جميعًا ولا يفرق بينهم من جهة أصل الإيمان برسالتهم. ليس توحيد الله مشروع خصومةٍ بين الرسل، بل هو الكلمة التي اجتمعوا عليها، وما وقع من التحريف والتفرق كان من الناس بعدهم.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. تعود الخاتمة نفسها تقريبًا لتبين أن الكثرة لا تصنع الحق. قد يكون الفسق واسعًا حتى يبدو مألوفًا، لكن شيوعه لا يطهره، كما أن قلة المهتدين لا تبطل هدايتهم. إن ميزان الله لا يجمع الأصوات، بل يزن الحقائق؛ والإنسان الذي يبحث عن الحق لا يسأل أولًا: كم عدد السائرين؟ بل: هل هذا طريق الله؟

والفسق هنا قد يكون خروجًا عن أصل الإيمان، أو خروجًا عن مقتضى الكتاب، وكل ذلك ثمرة لانقطاع الصلة الحية بالوحي. تبدأ المسافة بتعديلٍ صغير في الطريق، ثم يطول الأمد، وتتراكم التبريرات، حتى يرث الأبناء صورةً دينية لا يعرفون مقدار بعدها عن الأصل. ولهذا يحتاج كل جيلٍ إلى عملية رجوع: لا إلى هدم التاريخ كله، ولا إلى تقديسه كله، بل إلى عرضه على الكتاب والميزان.

بين قسوة الحديد ورقة الرحمة

تضع هاتان الآيتان أمام آية الحديد توازنًا مدهشًا؛ هناك ﴿بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، وهنا ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾. وكأن الرسالة الكاملة لا تستقيم بأحدهما وحده. البأس بلا رحمةٍ يحول الإنسان إلى طاغية، والرحمة بلا بأسٍ تترك الضعفاء لقمةً للطغاة. المطلوب قوةٌ رحيمة، ورحمةٌ قوية؛ قلبٌ يرق للإنسان، ويدٌ تمنع من يعتدي عليه.

وقد تبدأ الانحرافات حين ينقسم الناس بين طرفين: طرفٌ يحتكر القوة فيجعل التدين صلابةً دائمة، حتى يصبح العفو عنده ضعفًا واللين تهاونًا، وطرفٌ يحتكر الرحمة فيجعل التدين عاطفةً لا تعرف حدودًا، حتى يصبح الحزم قسوةً وإن كان يحمي الحق. أما الوحي فيضع كل خُلقٍ في موضعه؛ يرحم حيث تكون الرحمة إصلاحًا، ويشتد حيث تصبح الشدة حمايةً، ويمنع الهوى في الحالين من ارتداء اسم الفضيلة.

والرهبانية تمثل خللًا آخر في التوازن: محاولةً لحماية القلب بإخراجه من ميدان الحياة، بينما آية الحديد تريد للقلب أن يدخل العالم حاملًا الكتاب والميزان. ليس امتحان الإنسان أن يظل طاهرًا في مكانٍ لا يُستفز فيه، بل أن يحمل طهارته إلى السوق والسياسة والأسرة والصناعة والعلاقات، وأن يظل ميزانه قائمًا وسط المصالح. القداسة التي لا تستطيع أن تمشي في التراب قد تكون هشاشةً لا كمالًا؛ فالأنبياء كانوا أطهر الناس، ومع ذلك خالطوا أقوامهم، وباعوا واشتروا، وتزوجوا، وقادوا، وحكموا، وصبروا على الأذى.

إن الرسالة لا تريد من الإنسان أن يصير ملاكًا منزوع الغرائز، بل عبدًا يوجه غرائزه بنور الله؛ يحب دون أن يعبد مَن يحب، ويملك دون أن يبخل، ويقوى دون أن يظلم، ويتمتع دون أن يغفل، ويزهد دون أن يحرم ما أحل الله. تلك هي الروحانية الأصعب والأجمل: أن يكون القلب مع الله واليدان تعملان في الأرض.

الميراث الحقيقي للأنبياء

الميراث الحقيقي لنوحٍ وإبراهيم وعيسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ليس مجرد شجرة نسبٍ أو ذكرى تاريخية، بل موقفٌ من الله والحق. من ورث صبر نوح على الدعوة، وتوحيد إبراهيم أمام الأصنام، ورحمة عيسى التي لا تفارق العبودية لله، فقد أخذ نصيبًا من أثر النبوة. أما مَن اكتفى بالانتساب إليهم ثم خالف أصول دعوتهم، فقد حمل الاسم وضيَّع المعنى.

والأمة الخاتمة مدعوةٌ أن ترى نفسها داخل هذه السلسلة لا فوقها؛ تستفيد من مآلات السابقين، وتحذر أن تطول عليها القرون فيتحول القرآن في حياتها إلى تراثٍ تُزيَّن به الخطب بدل أن يكون قوةً تُصلح الواقع. عليها أن تحفظ الكتاب، لكن حفظ الحروف يجب أن يقود إلى حفظ الحدود والقيم؛ وأن تعظم النبي ﷺ، لكن تعظيمه يجب أن يظهر في صدقها وعدلها ورحمتها؛ وأن ترفض الرهبانية المبتدعة، لكن رفضها لا يتحول إلى غرقٍ في الشهوات باسم التوازن.

فليس البديل عن الرهبانية أن تعبد الدنيا، بل أن تضع الدنيا في موضعها؛ تعمل فيها بقلبٍ مسافر، وتأخذ منها ما يعينك، وتترك ما يستعبدك، وتجعل كل نعمةٍ بابًا إلى المنعم. وليس

البديل عن التشدد المبتدع أن تتساهل في حدود الله، بل أن تقف عند الحد الذي وضعه، فلا تزيد عليه استعلاءً ولا تنقص منه اتباعًا للهوى.

وهكذا تمر بنا الآيتان في طريقٍ طويل يبدأ بسفينة نوح، ويمر بنار إبراهيم، ثم يمتد على آثار الرسل حتى يبلغ عيسى ابن مريم والإنجيل والرأفة والرحمة والرهبانية. وفي نهاية الطريق يقف السؤال أمام كل وارثٍ للكتاب: ماذا ورثت حقًّا؟ هل ورثت كلمات الأنبياء أم وجهتهم؟ هل بقي الوحي في يدك وثيقةً لهويتك، أم صار في قلبك نورًا يعيد تشكيلك؟ فالتاريخ لا ينجينا لمجرد أننا ننتمي إليه؛ إنما ينجينا أن نكون الحلقة الصادقة التي لا ينطفئ عندها نور الرسالة.

كِفْلانِ من الرحمة ونورٌ لا تنطفئ به الطريق

تأملات في الآيتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

تصل السورة إلى خاتمتها بنداء الإيمان، بعد أن بدأت بتسبيح السماوات والأرض؛ وكأنها أخذت الإنسان في رحلتها من الوجود الذي يعرف ربه بفطرته إلى القلب الذي ينبغي أن يعرف طريقه بإرادته. سبَّحت الأشياء لأنها منقادةٌ لأمر الله، أما الإنسان فدُعي إلى أن يجعل اختياره منسجمًا مع تسبيح الكون، وأن يدخل موكب العبودية بقلبه وعمله، لا بوجوده القهري وحده. وبين بداية التسبيح ونهاية الإيمان عبرنا الملك والموت والحياة، والإنفاق والنور والنفاق، والخشوع والقسوة، والدنيا والحطام، والكتاب والميزان والحديد، ومواكب الأنبياء؛ حتى انتهينا إلى الوعد الجامع: رحمةٌ مضاعفة، ونورٌ يمشي به الإنسان، ومغفرةٌ تستر نقص الطريق.

إن السورة لا تغلق أبوابها على مشهد الحديد، بل على مشهد الفضل؛ لأن القوة ليست الكلمة الأخيرة، والعمل نفسه ليس الكلمة الأخيرة، وإنما فضل الله هو الذي يحمل العبد من أول الطريق إلى آخره. الحديد يحرس القسط في الأرض، لكن الرحمة هي التي تنقذ القلب، والميزان يكشف الحق، لكن المغفرة تتدارك النقص، والإنسان يسابق، لكن الجنة تبقى فضلًا من الله يؤتيه من يشاء. هكذا يعود كل شيءٍ إلى أصله: الله هو الأول الذي بدأت منه النعم، والآخر الذي تنتهي إليه المقاصد.

يا أيها الذين آمنوا: دعوةٌ إلى إيمانٍ لا يتوقف عن النمو

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. يخاطبهم باسم الصفة التي يحبونها ويرجون أن يلقوه بها، لكنه لا يجعل الإيمان محطةً جامدةً بلغوها وانتهى الأمر. لقد آمنوا، ثم يُدعون إلى التقوى والإيمان بالرسول؛ لأن الإيمان حياةٌ تزيد وتنقص، وتتسع في القلب أو تضيق، وتحتاج إلى أن تُسقى كما تُسقى الأرض التي أحياها الله بعد موتها. ليس سؤال المؤمن: هل آمنت مرة؟ بل: ما مقدار الحياة التي صنعها الإيمان فيَّ الآن؟

وقد يحمل النداء معنى خطاب من آمن بالرسل السابقين أن يتقي الله ويؤمن بمحمد ﷺ الرسول الخاتم، فلا يظن أن وفاءه لنبيٍّ سابقٍ يبيح له ردَّ الرسول الذي جاء مصدقًا لما سبقه ومهيمنًا على الكتب. إن الإيمان بالرسل لا يُجزَّأ بحسب الميراث القومي أو الهوى؛ فمَن صدق عيسى أو موسى عليهما السلام حقًّا، وجب أن يصدق الخبر الذي بشَّرت به الرسالات، وأن يتبع الرسول الخاتم حين تقوم عليه الحجة برسالته.

كما يتوجه المعنى إلى جماعة المؤمنين جميعًا: يا مَن حملتم اسم الإيمان، جدِّدوا حقيقته؛ فالاسم لا يغني إذا فارقته التقوى، والانتساب إلى محمد ﷺ لا ينفع إذا أُعرض عن هديه. لم يُذكر الإيمان لتطمين النفوس إلى مجرد هويتها، بل لاستنهاضها إلى مقتضى الاسم؛ كأن الآية تقول: إن كنتم قد آمنتم، فدعوا إيمانكم يقودكم إلى مزيدٍ من الخشية والاتباع.

وما أجمل أن ينادي الله عبده بالإيمان مع علمه بنقصه؛ فهو لا يقول له: يا أيها الكاملون، بل ينسبه إلى أصل الخير ثم يدعوه إلى ترقيته. في هذا تربيةٌ لا تحطم الإنسان بخطئه ولا تخدعه بالرضا عن واقعه؛ تمنحه هويةً يرجوها، ثم تفتح أمامه مقامًا أعلى. يحتاج القلب إلى هذا التوازن: أن يعرف نعمة الإيمان فيشكر، وأن يعرف نقصه فيه فيجاهد.

التقوى: أن تجعل بين قلبك وبين السقوط وقاية

﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾. التقوى ليست خوفًا منفصلًا عن المحبة، ولا ارتجافًا يطرد القلب من ربه، بل يقظةٌ تجعله يحذر كل ما يقطعه عنه. أن تتقي الله يعني أن تجعل بينك وبين غضبه وقايةً من طاعته، وأن تعيش مستشعرًا علمه وقربه، فلا تنظر إلى صغر المعصية بل إلى جلال مَن عصيت. وهي ليست عزلةً عن الحياة، بل بصيرةٌ تصحبك في تعقيداتها؛ تعرف بها متى تقدم ومتى تحجم، ومتى يكون اللين رحمةً ومتى يكون ضعفًا، ومتى يكون الحديد عدلًا ومتى يصير طغيانًا.

وقد يكون الإنسان ورعًا في بعض المحرمات الظاهرة، لكنه قليل التقوى في حقوق الناس؛ يتحرج من شبهةٍ في طعامه ولا يتحرج من جرح كرامة أحد، ويكثر من النوافل ثم يظلم في خصومته، أو يتشدد في المظهر ويطلق لسانه في أعراض الخلق. لكن التقوى القرآنية شاملة؛ لأن الله يعلم ما في الصدور ويبصر الأعمال كلها، ولا تتطلي عليه التجزئة التي نصنع بها لأنفسنا صورة الصلاح.

التقوى أن تخاف على قلبك من القسوة كما تخاف على جسدك من المرض، وأن تلاحظ طبقة الغفلة قبل أن تتراكم، وأن تبادر إلى التوبة قبل أن يصير الذنب مألوفًا. المتقي لا ينتظر السقوط في الهاوية كي يستيقظ، بل يرى الانحراف في الخطوة الأولى؛ يعلم أن المسافات

البعيدة تبدأ بميلٍ صغير، وأن المنافقين الذين انفصلوا عن المؤمنين بالسور لم يبدؤوا في لحظة الفصل، بل فتنوا أنفسهم وتربصوا وارْتابوا وغرتهم الأماني.

والتقوى كذلك ألا تأمن على نفسك بسبب ماضٍ صالح؛ فقد طال الأمد على أقوامٍ كانوا قريبين من الكتاب، ثم قست قلوبهم. لا يعيش المتقي مذعوراً من كل شيء، لكنه يعيش مفتقراً إلى الثبات؛ لا يقول: بلغت، بل يقول: يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي. يعرف أن الهداية نعمةٌ متجددة، وأن القلب بين أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، فيجمع بين الرجاء والخوف، وبين العمل وسؤال القبول.

الإيمان بالرسول: أن يتحول الحب إلى اتباع

﴿وآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾. الإيمان برسول الله ﷺ ليس تصديقًا ذهنيًّا بأنه بُعث فحسب، بل قبولٌ لما جاء به، ومحبةٌ لشخصه وهديه، وتحكيمٌ لرسالته في العقل والقلب والحياة. قد يعلن الإنسان حبه للنبي ﷺ، ويكتب في مدحه أرق العبارات، ثم يستثقل سنته حين تخالف هواه؛ لكن المحبة التي لا تقود إلى الاتباع تبقى عاطفةً ناقصة. علامة الحب أن يصير المحبوب مرجعًا في الطريق، لا زينةً في الكلام.

ورسول الله ﷺ عبدٌ رسول، وهذه العبودية هي ذروة شرفه؛ فقد ذكرته السورة من قبل بقولها: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾. لا يُرفع إلى مقام الربوبية، ولا يُنتقص حقه في التوقير والاتباع؛ بل يُحب كما أحب الله، ويُطاع فيما بلَّغ، ويُعرف أن كل نورٍ جاء به إنما هو من الوحي. هذا التوازن يحمي القلب من الجفاء والغلو معًا.

والإيمان به إيمانٌ بخاتمية الرسالة ووحدة موكب الأنبياء؛ لم يأت ليقطع ما سبقه من هدى، بل مصدقًا لأصل الرسالات، ومتممًا للبناء، ومهيمنًا بالقرآن على ما قبله. في رسالته تجتمع رحمة عيسى، وتوحيد إبراهيم، وصبر نوح، وشريعةٌ تقيم الكتاب والميزان وتحسن استعمال الحديد. إنه وارث إخوانه من الأنبياء وخاتمهم، ودينه يحمل للإنسان طريقًا كاملًا لا يحتاج إلى رهبانيةٍ مبتدعة ولا إلى ماديةٍ تقطع الروح عن السماء.

والإيمان بالرسول يقتضي ألا يُفصل هديه الروحي عن هديه الاجتماعي؛ فقد قام الليل حتى تفطرت قدماه، وأقام العدل بين الناس، ورحم الصغير، وحمى الحقوق، وعاهد وحارب وصالح، وبنى أمةً لم تكن العبادة فيها فرارًا من الواقع. مَن أخذ من سنته العبادة وترك العدل، أو أخذ من سيرته القوة وترك الرحمة، لم يأخذ الصورة كاملة.

كفلان من الرحمة

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾. الكِفْل هو النصيب والحظ، والوعد هنا بنصيبين من الرحمة. وقد فسَّر أهل العلم ذلك بأجر الإيمان بالرسول السابق وأجر الإيمان بمحمد ﷺ لمن صدَّقهما واتبع الحق، كما يدخل في سعة المعنى مضاعفة الأجر لمن جمع التقوى والإيمان الصادق والاتباع. إنها رحمةٌ تعطي الإنسان على وفائه السابق وعلى استجابته للنور الجديد، فلا يضيع عند الله صدقٌ قديم، ولا إخلاصٌ حمل صاحبه إلى قبول الحق حين جاءه.

الإنسان قد يتوهم أن انتقاله من مألوفه إلى الحق الجديد يلغي تاريخه كله، لكن الله لا يضيع ما كان صادقًا منه؛ بل يجعله جسرًا إلى تمام الهداية ويضاعف له الأجر. مَن كان وفيًّا للوحي حقًّا لن يخاف من نورٍ يصدقه ويكمله، وإنما يخاف الجديدَ مَن جعل هويته فوق الحقيقة. المؤمن الصادق لا يعبد الصيغة التي ورثها، بل يعبد الله، ولذلك يتبع برهانه حيث ظهر.

وكلمة ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ تعيد الفضل إلى واهبه؛ الرحمة لا تُنتزع بقوة العمل، بل يؤتيها الله. أنت تتقي وتؤمن، لكن الأجر إيتاءٌ منه، لأنه هو الذي هداك إلى التقوى والإيمان، ثم وعدك عليهما. العبد يتحرك داخل رحمةٍ سابقة: وُلد بنعمة، وسمع الوحي بنعمة، وفهمه بنعمة، وأُعين على الاستجابة بنعمة، ثم ينتظر رحمةً أخرى بعد الموت.

وإضافة الكفلين إلى ﴿رَحْمَتِهِ﴾ تطمئن القلب إلى أن علاقته بالله ليست حسابًا تجاريًّا جافًّا. العمل له وزن، والميزان حق، لكن الذي يحيط بالعبد من قبل العمل وبعده هو الرحمة. لولاها لم يثبت قلب، ولم يُغفر ذنب، ولم تُقبل طاعة. والرحمة ليست ضد العدل، بل هي فضلٌ فوقه؛ الله لا يظلم أحدًا، ثم يتفضل على مَن يشاء بما لا يستحقه بمجرد عمله المحدود.

نورٌ يُمشى به لا نورٌ يُتحدَّث عنه

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾. تعود السورة في آخرها إلى الكلمة التي أضاءت مشهد القيامة في وسطها: النور. هناك رأينا نور المؤمنين يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وهنا نرى النور يُجعل لهم في الدنيا كي يمشوا به. فنور الآخرة امتدادٌ لنورٍ عاشوه هنا؛ مَن لم يطلبه في زمن الاختيار لن يستطيع اقتباسه في زمن الجزاء.

ولم يقل: نورًا تنظرون إليه، بل ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾. النور القرآني عملي؛ وظيفته أن يدل القدم على موضعها، وأن يميز الطريق من الحفرة، والحق من الشبهة، والمصلحة الحقيقية من الطمع المتنكر. قد يعجب إنسانٌ بالنور ويتحدث عن جماله، لكنه يبقى واقفًا، والغاية أن يمشي. المعرفة التي لا تنتقل إلى القرار لم تحقق وظيفتها كاملة، والآية التي لا تغيّر موضع خطوةٍ في حياة قارئها لم يُفتح له من نورها إلا بقدر ما وعى.

والمشي يعني أن الطريق ممتد، وأن الإنسان لا يُنقل إلى الكمال دفعةً واحدة. يسير بنوره خطوةً خطوة؛ تنكشف له في كل مرحلة مساحةٌ بقدر حاجته، ثم يزداد النور بالطاعة، ويضعف بالغفلة. وقد يتمنى أن يرى الطريق كله قبل أن يبدأ، لكن من حكمة الله أن يهبه من البيان ما يقوده إلى الخطوة التالية، فإذا صدق فيها فُتح له ما بعدها. هكذا تتولد الهداية من المجاهدة: لا تملك كل النور حتى تسير، بل تسير بما أعطاك الله من نور، فيزيدك نورًا.

والنور الذي يمشي به المؤمن يشمل نور الوحي والعلم والبصيرة والإيمان؛ يرى به الأشياء وراء زينتها، فلا يخدع بالدنيا حين تخضر، ولا ينهار حين تصفر، ولا يجعل القوة دليل الحق، ولا الكثرة ميزان الصواب. قد يرى الناس جميعًا مكسبًا في أمر، ويرى هو فيه خسارةً لضميره وآخرته؛ وقد يفرون من تضحيةٍ عاجلة، ويرى فيها طريقًا إلى الأجر الكريم. النور لا يغير الأشياء الخارجية دائمًا، لكنه يغير حقيقتها في العين.

وبه يمشي في علاقاته، فيعرف مَن يحب وكيف يحب، فلا يحوّل المحبة إلى عبودية، ولا الاختلاف إلى ظلم. وبه يمشي في المال، فيراه استخلافًا لا ملكًا مطلقًا. وبه يمشي في السلطة، فيحمل الحديد تحت حكم الميزان. وبه يمشي في العبادة، فلا يبتدع رهبانيةً ظنًّا أن المشقة مقصودةٌ لذاتها. وبه يمشي في المصيبة، فيبصر الكتاب السابق وراء الدمع، فلا يتهم ربه وإن انكسر.

والنور لا يجعل الطريق خاليًا من المشقة، قد ترى به الصخرة بوضوح، لكنك ما تزال محتاجًا إلى تسلقها. وظيفته ألا تضيع، لا أن يلغي امتحانك. بل إن رؤية الحق قد تزيد الكلفة؛ لأنك لم تعد تملك عذر الجهل. ولذلك يحتاج النور إلى عزيمة، ويحتاج الكتاب إلى حديدٍ أخلاقي يحمي مقتضاه داخل النفس.

ومن أعظم النور أن ترى عيوبك دون أن تيأس، ونعم الله دون أن تختال. الظلمة تجعل الإنسان بين طرفين: إما أن يعظم نفسه حتى لا يرى نقصًا، أو يحتقرها حتى لا يرى أملًا. أما النور فيكشف له الذنب ويكشف إلى جواره باب المغفرة؛ فيبكي ويقوم، وينكسر ولا يستسلم. يرى نفسه فقيرًا، لكنه فقيرٌ إلى غنيٍّ رحيم.

المغفرة التي تصلح ما أفسدته الخطوات

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾. بعد الرحمة والنور تأتي المغفرة، لأن السائر بالنور يظل بشرًا قد تزل قدمه. لم يشترط الله ليدعوهم إلى الطريق أن يكونوا بلا ماضٍ، بل وعدهم أن يغفر. والمغفرة ليست تجاهلًا للذنب، بل سترٌ ومحوٌ بعد توبةٍ وإيمان، ورحمةٌ تنقذ الإنسان من أن يبقى إلى الأبد أسير نسخته القديمة.

إن الحاجة إلى المغفرة تصحب المؤمن حتى آخر لحظة، فكلما ازداد معرفةً بالله رأى تقصيره أوضح، ولم يعد يقارن نفسه بالغافلين كي يطمئن، بل يقارن عمله بجلال مَن يعبده فيستغفر. ولهذا كان رسول الله ﷺ أكثر الناس استغفارًا مع كمال عبوديته، فالقرب لا يصنع الغرور، بل يصنع حياءً أعمق.

وقد يخشى بعض الناس أن تكون ذنوبهم قد أطفأت النور نهائيًا. تأتي الآية فتجمع النور والمغفرة في وعدٍ واحد، يغفر الله لك ثم يجعل لك نورًا، أو ينير لك طريق التوبة حتى تبلغ المغفرة. لا تجعل خطيئتك حجةً على البقاء في الظلام، فالشيطان الذي أغراك بها يريد بعدها أن يقنعك بأنك لا تصلح للنور. لكنه يكذب، ما دام القلب قادرًا على الندم، واللسان قادرًا على الاستغفار، والعمر لم يُغلق بالموت، فباب العودة قائم.

والمغفرة لا تعني إسقاط حقوق العباد بلا رد، فمن ظلم لا يكفيه أن يقول: استغفرت، مع إصراره على إبقاء أثر ظلمه. النور يقوده إلى رد الحق والاعتذار والإصلاح قدر استطاعته. التوبة الصادقة لا تطلب راحة الضمير وحدها، بل تحمل مسؤولية ما أفسدت. وما أجمل أن يصلح الإنسان بعد توبته ما استطاع، فيتحول ماضيه من حفرةٍ يسقط فيها إلى معرفةٍ تجعله أرحم بالمتعثرين.

والله غفور رحيم

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. لم يقل: يغفر لكم في هذه الحالة فحسب، بل عرَّف نفسه بالمغفرة والرحمة، ليفهم القلب أنه يتعامل مع ربٍّ عظيم المغفرة واسع الرحمة. أفعاله في عباده صادرةٌ عن صفات كماله، ومغفرته لا تنقص مع كثرة التائبين، كما لا ينقص نوره إذا أضاء به قلوب العالمين.

﴿غَفُورٌ﴾ بصيغة المبالغة، يغفر الذنب وإن عظم، ويغفر الذنوب وإن كثرت، ويغفر للعبد وإن عاد بعد توبةٍ ثم غلبه ضعفه فعاد صادقًا. ليس معنى ذلك أن يتخذ الذنب لعبةً ويتكئ على المغفرة، بل ألا يجعل الشيطان كثرة عثراته حجابًا عن كثرة عفو ربه. التائب لا يقول: سأعصي لأن الله يغفر، بل يقول: سأعود لأن الله لم يغلق الباب.

وهو ﴿رَحِيمٌ﴾، لم يكتف بأن يمحو أثر الماضي، بل يرحم المستقبل، ويمنح العبد قوةً ونورًا ورفقةً تعينه. المغفرة تزيل الحمل، والرحمة تفتح الطريق. وقد يغفر الله للإنسان ثم يبدل سيئاته حسناتٍ بصدق توبته، فتتحول البقعة التي كان يستحي منها إلى بابٍ عرف منه ربه وانكسر بين يديه.

لا أحد يحتكر فضل الله

ثم يقول تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾. في توجيه تركيب الآية وقراءة دلالتها تفصيلٌ عند المفسرين، ومن معانيها الظاهرة: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يملكون شيئًا من فضل الله، ولا يستطيعون حصر النبوة والهداية والأجر في جماعةٍ أو نسبٍ أو تاريخ. الفضل ليس ميراثًا قوميًّا يُغلق بابه على الآخرين، ولا خزانةً تملك جماعةٌ مفاتيحها، وإنما هو لله وحده.

قد يقع الإنسان في وهمٍ خفي: يظن أن قربه التاريخي من الوحي يمنحه سلطةً على رحمة الله، فيحدد مَن يستحقها ومَن يُحرم منها، وكأن الفضل خرج من يد الله إلى مؤسساته البشرية. لكن الرسالات نفسها جاءت لهدم احتكار العلاقة بالله؛ لا كهانة تملك الغفران، ولا نسبٌ يجبر الله على التفضيل، ولا جماعةٌ تمنح النجاة لمن تشاء. كل قلبٍ يقف بين يدي ربه، وكل إنسانٍ يُفتح له باب الإيمان والعمل.

وهذا التحذير لا يقف عند أهل الكتاب السابقين؛ فقد يقع المسلم في المرض نفسه إذا ظن أن مجرد انتسابه إلى الأمة الخاتمة يكفيه، أو تعامل مع الهداية كأنها ملكٌ عرقي أو ثقافي لا فضلٌ يستوجب الشكر. نحن لم نخلق القرآن، ولم نمنح أنفسنا شرف الإيمان؛ الله هو الذي أنزل وهَدَى. وإذا لم نحمل النعمة بأمانة، فنحن لا نملك أن نمنع فضل الله عن قلوبٍ أخرى يفتحها للحق.

والإنسان بطبعه يميل إلى احتكار ما يمنحه التميز؛ فإذا حمل علمًا أحب أن يبقى الآخرون محتاجين إليه، وإذا نال مكانةً ضاق بمَن يقترب منها، وقد يفعل ذلك حتى في الدين. لكنه إذا فهم فضل الله، صار فرحه بهداية الآخرين جزءًا من شكره؛ لا يرى في تقربهم إلى الله مزاحمةً له، لأن القرب الإلهي لا يضيق بكثرة القريبين.

إن النور لا ينقص حين يقتبس منه الآخرون، بل تتسع به الأرض. وهذه مفارقةٌ مع مشهد المنافقين الذين طلبوا اقتباس النور في الآخرة فلم يستطيعوا؛ في الدنيا كان يمكن للنور أن ينتشر بينهم دون أن ينقص من المؤمنين شيء، أما بعد إغلاق دار العمل فلا يُستعار. فَمَن أوتي نورًا اليوم ينبغي أن يفتح به الطريق للناس، لا أن يجعله تاجًا يتعالى به عليهم.

الفضل بيد الله

﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾. إثبات اليد لله كما أثبتها لنفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تمثيلٍ ولا تكييف، مع تنزيهه سبحانه عن مشابهة المخلوقين؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. والآية تقرر أن الفضل ملكه وتحت تصرفه، لا يستطيع أحدٌ انتزاعه منه أو إلزامه بتوجيهه وفق أهواء البشر.

ما دام الفضل بيد الله، فلا تتذلل لمن لا يملك لك حقيقة الهداية أو القبول، ولا تجعل رضا الناس جسرًا وحيدًا إلى قيمتك. قد يغلق البشر في وجهك أبوابهم، ويفتح الله لك من فضله

ما لا يخطر لك؛ وقد يضعون اسمك في آخر الصف، ويكون لك عند ربك مقامٌ لا يعرفونه. ليست الدعوة إلى احتقار الأسباب أو العلاقات، بل إلى ألا يتحول السبب إلى ربٍّ صغير في القلب.

وما دام الفضل بيد الله، فلا تحسد مَن أُعطي؛ لأنه لم يأخذ من خزانتك. ارفع حاجتك إلى صاحب الفضل، واسأله أن يبارك لغيرك ويعطيك. الحسد اعتراضٌ خفي على توزيع العطايا، وكأن الحاسد يقول: لم يكن ينبغي أن يصل هذا الخير إليه. أما القلب الراضي فيعرف أن الله أعلم بالمواضع، وأن العطاء نفسه امتحان، وأن ما يصلح لغيره قد لا يصلح له في اللحظة نفسها.

وما دام الفضل بيده، فلا تعجب بطاعتك؛ فقد كان يستطيع أن يتركك لنفسك، وأن يصرف قلبك بعد إذ هداك. الثبات فضل، والخشوع فضل، والدمعة فضل، وحتى خوفك من القسوة فضلٌ يدل على أن القلب لم يمت. العارف لا يرى نفسه مالكًا لهذه الأحوال؛ يشكرها ويحرسها ويسأل دوامها، لكنه لا يجعلها أساسًا لاستعلائه على مَن لم يُعط مثلها.

يؤتيه من يشاء

﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. الإيتاء اختيارٌ إلهي قائمٌ على العلم والحكمة؛ يعلم مَن يطلب الحق صادقًا، ومَن يريد به علوًّا في الأرض، ومَن إذا أُعطي شكر، ومَن قد يكون المنع في حقه رحمة. لا تحيط أعيننا بهذا الميزان؛ فقد نرى شخصًا لا يستحق في تقديرنا، ثم يفتح الله قلبه ويجعله من أنصار الحق، ونرى آخر له تاريخٌ طويل ثم يفتنه غروره.

إن أعظم ما يهيئ القلب للفضل أن يعترف بأنه فضل، لا حقٌّ مكتسبٌ على الله. المتكبر يدخل العبادة مطالبًا بثمنها، أما الفقير يدخلها معتذرًا من نقصها، راجيًا أن يتقبلها الكريم. وحين يأتيه خيرٌ يقول: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر؛ فلا ينام على النعمة، بل يسأل عن تكليفها.

ومشيئة الله لا تعني أن أبواب الفضل مغلقةٌ بلا سبب؛ فقد دعا الناس إلى التقوى والإيمان، ووعدهم بالرحمة والنور والمغفرة. من طرق الباب بالسبب الذي شرعه الله رجونا له الفتح، لكن النتيجة تظل فضلًا لا استحقاقًا مستقلًّا. السعي مطلوب، والتوكل واجب، والمنة لله.

ذو الفضل العظيم

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. بهذه الكلمات تختم السورة، كما ختمت آية المسابقة إلى الجنة بالوصف نفسه. بين الموضعين تكرارٌ يصنع إطارًا من الفضل حول الطريق: سابقوا إلى المغفرة والجنة، لكن لا تنسوا أن ذلك فضل الله؛ واتقوا وآمنوا، ثم لا تنسوا أن الرحمة والنور فضل الله. العمل في قلب الفضل، والفضل يسبق العمل ويلحقه.

هو ذو الفضل العظيم؛ أعطى الوجود قبل أن نسأل، وأعطى الحياة، ثم أرسل الرسل، وأنزل الكتاب، ونصب الميزان، وسخر الحديد، وفتح باب الإنفاق، ووعد بالنور، وحذر من القسوة، وأرانا حطام الدنيا، ثم دعانا إلى جنةٍ عرضها كعرض السماء والأرض. كل آيةٍ في السورة مظهرٌ من فضلٍ يريد إنقاذ الإنسان من وهمٍ أو قيد.

وإذا كان فضل الله عظيمًا، فلا ينبغي لضعفك أن يكون أعظم في عينيك منه. اعرف ذنبك ولا تعظمه فوق المغفرة، واعرف قسوتك ولا تجعلها أقوى من قدرة المحيي، واعرف فقر يدك ولا تظن أن خزائن الرزاق تنفد. ما دام الفضل بيده، فالباب أوسع من تاريخك، والنور أقرب من عتمتك، والربيع ممكنٌ بعد أطول مواسم الجفاف.

من تسبيح الوجود إلى نور الطريق

انتهت سورة الحديد، لكنها تترك في القلب طرقًا لا تنتهي. بدأنا معها والكون كله مسبحٌ لله، ثم عرفنا أن الملك له، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن، وأن علمه يدخل مع البذرة في ظلمة الأرض، ويصعد مع الدعاء إلى السماء، ويحيط بنا أينما كنا. هناك، عند بوابة السورة، سقط وهم الاستقلال؛ لم يعد الإنسان مركز الوجود، بل عبدًا في ملك الله، يملك ما في يده استخلافًا، ويحيا كل نبضةٍ بإذن، ويسير إلى مَن إليه ترجع الأمور.

ثم جاءت دعوة الإنفاق لتختبر هذه المعرفة: إن كان المال لله، فلماذا تغلق اليد؟ وإن كانت الآخرة حقًّا، فلماذا نخاف ضياع ما نرسله إليها؟ تعلمنا أن الصدقة ليست نقصًا، بل انتقال، وأن المحتاج لا يأخذ مالنا بقدر ما يحمل لنا بابًا إلى الأجر الكريم. فالمال الذي يبقى سيصير ميراثًا، والمال الذي يخرج لله يصير نورًا؛ وما أكثر الأشياء التي نحرسها من الضياع بينما يضيع عمرنا في حراستها.

ثم رأينا اليوم الذي تتحول فيه الأعمال إلى أنوار، وتسعى بصحبة أصحابها، ورأينا الذين عاشوا بجوار الإيمان دون أن يدخلوه في قلوبهم يطلبون قبسًا بعد فوات أوانه. عرفنا أن النور لا يُستعار يوم القيامة، وأن القرب من الصالحين لا يغني عن صدق النفس، وأن أخطر المسافات هي تلك التي لا تراها العيون: جسدان في صفٍّ واحد، وبين القلبين سورٌ سينكشف يومًا.

وفي قلب السورة وقف السؤال الذي يستطيع أن يوقظ عمرًا كاملًا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾؟ ليس السؤال: ألم يأنِ للكافرين أن يؤمنوا، بل للمؤمنين أن تخشع قلوبهم؛ لأن الاسم قد يسبق الحقيقة، واللسان قد يدخل الباب بينما يبقى القلب خارجه. عرفنا أن طول الأمد لا يُقاس بالسنوات، بل بمقدار المسافة بين الآية وأثرها، وأن القلب قد يقسو وهو يحمل الكتاب، لكنه ليس محكومًا بالموت؛ فالله يحيي الأرض بعد موتها، ومن يخرج الأخضر من التراب يستطيع أن يستخرج الخشوع من أعمق طبقات القسوة.

ثم مررنا بالحياة الدنيا في كلماتها الخمس: لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ وتكاثر. رأيناها غيثًا يوقظ الأرض، ثم نباتًا يعجب الناظرين، ثم اصفرارًا، ثم حطامًا. ولم تطلب السورة منا أن نكره الربيع، بل ألا ننسى الخريف، وأن نفرح بالزهرة دون أن نبني خلودنا فيها. الدنيا ليست عدوًّا إذا بقيت وسيلة، لكنها تصير متاع الغرور حين تعد القلب بما لا تملكه: الأمان المطلق، والامتلاء الكامل، والبقاء.

وعندما كشفت السورة زيف سباق الدنيا، لم تطفئ فينا رغبة السبق، بل صححت ميدانها: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. هناك سباقٌ لا يحتاج نجاحك فيه إلى فشل غيرك، ولا يضيق بتعدد الداخلين؛ جنةٌ عرضها كعرض السماء والأرض. تعلمنا أن المسابقة عمل، لكن الوصول فضل، وأن المؤمن يمشي بكل قوته ثم يصل إلى الباب فقيرًا، لا يقول: فتحتُه باستحقاقي، بل: فتحه لي ذو الفضل العظيم.

ثم دخلنا محراب القدر، فعرفنا أن المصائب في الأرض والأنفس كانت في كتابٍ قبل أن تُخلق، لا لنترك السعي، بل كيلا يأكلنا الأسى على الفائت ولا يفسدنا الفرح بالآتي. عرفنا أن الرضا لا يمنع الدمع، وأن الحزن لا يناقض اليقين، وأن القلب يمكن أن ينكسر دون أن يعترض. كل ما نحب وديعة، وكل ما يفوت كان معلومًا، وكل ما يأتينا إيتاءٌ لا دليلًا على استحقاق ذاتي؛ لذلك لا نختال، ولا نفخر، ولا نبخل بما سيمضي عنا مهما تشبثنا به.

ثم وقفنا عند الآية التي أعطت السورة اسمها، فرأينا البيّنات والكتاب والميزان والحديد. عرفنا أن الوحي لم ينزل ليصنع عزلةً روحيةً بعيدةً عن أوجاع الناس، بل ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. وأن القوة ليست نجسةً في ذاتها ولا مقدسةً في ذاتها؛ إن سبقت الكتاب والميزان صارت طغيانًا، وإن خضعت لهما صارت حمايةً للعدل. وسر المؤمن أن يحمل قلبًا يلين لذكر الله، وموقفًا يصلب أمام الباطل؛ فلا يدخل الحديد إلى قلبه، ولا تخرج الرحمة من يده.

ثم عبرنا آثار نوحٍ وإبراهيم ومواكب الرسل حتى عيسى ابن مريم عليهم السلام، فرأينا وحدة النور، ورأينا أن النسب إلى النبوة لا يورث الهداية وحده، وأن الكتاب قد يبقى في اليد بينما يغادر أثره القلب. ورأينا الرأفة والرحمة، ثم الرهبانية التي ابتدعت من غير أن يكتبها الله، فتعلمنا أن النية الحسنة لا تستغني عن الطريق الصحيح، وأن الروحانية ليست هربًا من الحياة، بل دخولًا إليها بقلبٍ لا تعبده الأشياء.

وأخيرًا نادتنا السورة إلى التقوى والإيمان بالرسول ﷺ، ووعدتنا كفلين من الرحمة، ونورًا نمشي به، ومغفرةً تصلح ما أفسدته خطواتنا. ثم أعادت الفضل كله إلى يد الله، حتى لا تظن أمةٌ أنها تملك مفاتيح رحمته، ولا يظن عابدٌ أن طاعته أخرجته من مقام الفقر.

إن سورة الحديد ليست سورة المعدن وحده، بل سورة المعادن الداخلية في الإنسان. تختبر معدن إيمانه حين يُدعى إلى الإنفاق، ومعدن صدقه حين يغيب الرقيب، ومعدن قلبه حين تطول الأيام، ومعدن رضاه حين تفوته الأشياء، ومعدن تواضعه حين تأتيه، ومعدن عدله حين يصير الحديد في يده. يستطيع كثيرون أن يطلبوا القسط وهم ضعفاء، لكن الامتحان الكامل يبدأ حين يقوون: هل يبقى الميزان مستقيمًا، أم يميل مع اليد التي تمسكه؟

وفي أعماق السورة معركةٌ بين حديدين: حديدٍ سخره الله لإقامة القسط، وحديدٍ يتكون في القلب حين يقسو. الأول نعمةٌ إذا قاده الكتاب، والثاني داءٌ لا يشفيه إلا الذكر. وقد يكون الإنسان ضعيف الأدوات لكنه قوي القلب بالحق، وقد يملك بأس الحديد كله وقلبه خاوٍ من النور. لذلك لم تجعل السورة النجاة في القوة، بل في الإيمان الذي يصير نورًا؛ لأن الحديد يقف عند حدود الدنيا، أما النور فيعبر مع صاحبه إلى الآخرة.

يا صاحب القلب الذي طال عليه الأمد، لا تقل: انتهيت. الأرض التي رأيتها بالأمس ميتةً قد تخرج غدًا زهرًا لا تصدق أنه كان مختبئًا فيها، وربك الذي أحياها قادرٌ على أن يحييك. ابدأ بآيةٍ تسمعها كما لو أنها نزلت الآن إليك، وبذنبٍ تتركه، وحقٍّ ترده، وصدقةٍ تخفيها، وركعةٍ تقف فيها دون عجلة، وقلبٍ مكسورٍ تجبره. هذه أعمالٌ تبدو صغيرةً في عين الدنيا، لكنها مواد النور في يومٍ لا ينفع فيه إلا النور.

ويا صاحب النعمة، لا تجعل ما آتاك الله دليلًا على أنك خيرٌ من عباده، بل دليلًا على أن امتحانك أثقل. افتح يدك قبل أن يفتحها الموت قسرًا، وأرسل من مالك إلى أمامك، واحمل قوتك في خدمة الميزان؛ فالذي أعطاك قادرٌ على أن ينزع، والغني الوحيد هو الله.

ويا حامل الكتاب، لا تجعله زينةً لهويتك، بل ميزانًا يحاكمك قبل أن تحاكم به الآخرين. لا تقرأ قسوة الأمم السابقة وتنسى قلبك، ولا تقرأ نفاق غيرك وتغفل عن المسافة بين ظاهرك وباطنك، ولا تقرأ عن الحديد فتشتهي القوة قبل أن تتعلم العدل. ابدأ بإقامة القسط في الكلمة والنظرة والبيت، حتى إذا اتسعت يدك لم يتسع بها ظلمك.

هكذا تنتهي سورة الحديد كما بدأت: كل شيءٍ لله. له الملك، وإليه ترجع الأمور، ومنه الكتاب، وله الفضل، وبيده النور، وهو الغني الحميد. وبين البداية والنهاية يقف الإنسان لحظةً قصيرة، ممسكًا بأماناته، ممتحنًا في قلبه وماله وقوته. فإن عرف الحقيقة، خفَّت الدنيا في يده وعظم الله في قلبه؛ وإن أنفق، صار ماله نورًا؛ وإن خشع، لانت صلابته؛ وإن أقام القسط، صار الحديد في يده رحمة؛ وإن سار إلى الله، أدركه الفضل قبل أن تنتهي الطريق.

وبهذا اكتملت الرحلة التدبرية في آيات سورة الحديد جميعًا، من الآية الأولى إلى الآية التاسعة والعشرين.